كنتُ أنا

رواية



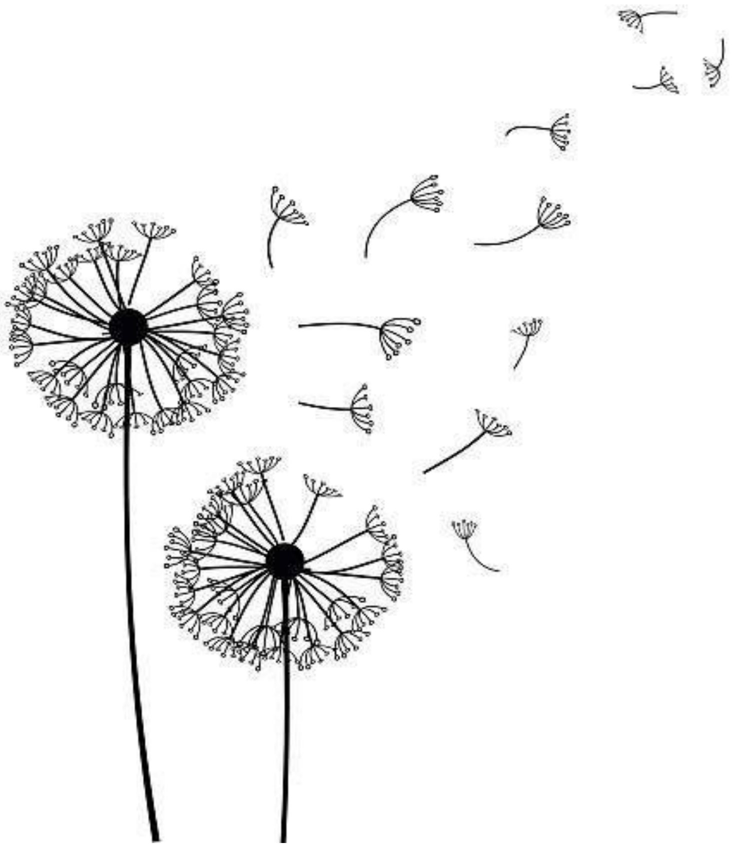
رويدة الدعمي

رواية كنتُ أنا

تأليف: رويدة الدعمي

تصميم الغلاف: صاحبة قناة ريحانة للتصاميم

https://t.me/Raehana_Design



بقية الله الأعظم

المقدمة

الحمد لله حمدًا كثيرًا كما يليق بجلال وجهه الكريم، وصلّى الله على نبيّنا وحبيبنا مُحمَّد وعلى آله الطيّبينَ الطاهرينَ، أمّا بعد..

فإنّ أكثر قصصي ورواياتي السابقة كانت موجّهةً في الأساس إلى الذين هم في حالة ابتعادٍ عن الدّين لجذبهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، أمّا هذه القصّة، فهي مُوجّهة إلى المتديّنين والمبلّغين، ومَن حملوا على عاتقهم إيصال رسالة الله تعالى إلى مجتمعهم ومَن يعيشون في محيطهم، وقد يكونونَ ممّن حملوا ثقل الرسالة المُحمّديّة لإيصالها إلى مجتمعاتٍ كثيرة!

كتبت هذه القصّة إليهم بالذات؛ لأذكّرهم _وأُذكِّر نفسي أولًا_ بدسائس الشيطان وجنوده، وبدسائس نفوسنا وشرِّها؛ لنناقش من خلالها كيفية الثبات على الدّين وسط كلّ هذه الوسائل التي يتّخذها الشيطان في جعل النفس جندًا من جنوده وليؤدي بتلك النفس بعد ذلك إلى مزالق المعصية ووحل الرذيلة والانحراف لا سمح الله.

هل يعني هذا بأنّ القصّة لا تناقش أبدًا ما يثيره أعداء الدّين من شبهات؟

كلّا، تناقشها، لكن ليست نقاشات كثيرة كتلك التي تقرأونها في باقي قصصي ورواياتي!

فأكثر النقاشات هنا حصلت بين المتديّنين أنفسهم؛ ليقوِّم أحدهم الآخر وليحذِّر بعضهم البعض من مخاطر هذه الدنيا وغرورها ومزالقها وخاصّة في زمنٍ كهذا الذي نعيشه، والذي قد كثُرت فيه أساليب الغواية والفتنة.

ولطالما حذَّرَنا نبيُّنا وأئمّتنا (عليهم صلوات الله وسلامه) من فتن آخر الزّمان، وما سيحصل في هذا الزمن من غربلةٍ وتمحيصٍ شديدٍ للمؤمنين والمؤمنات؛ ليميز الله تعالى مَن يستحقّ منهم أن يكون في ركب الحجّة بن الحسن ممّن لا يستحقّ ذلك.

حتى أنّهم (سلام الله عليهم) أوصونا نحن شيعة آخر الزّمان أن نكثر من قراءة دعاء الغريق! فأيّ مخاطر ستداهمنا؟! وأيّ مزالق قد نقع فيها دون أن نشعر حتى وصفوا (عليهم السّلام) حالنا كحال الغريق؟!

روى الشيخ الصّدوق في كتابه كمال الدين عنِ الإمام الصّادق (عليه السلام):

«سيصيبكم شُبهة فتبقون بلا علم يُرى ولا إمام هدى ولا ينجو منها إلّا من دعا بدعاء الغريق، قلت: وكيف دعاء الغريق؟ قال: تقول: يا الله يا رَحمنُ يا رَحِيمُ يا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّت قَلْبِي عَلى دِينِكَ».

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإيّاكم ممّن عرف دسائس النفس والشيطان وممّنِ اتّقى فتن آخر الزّمان؛ لنكون من المتشرّفين بنصرة وليّ الله الأعظم عجّل الله تعالى فرجه وسهَّل مخرجه.

رويدة الدعمي

كربلاء المقدسة

٢١/محرم الحرام/ ١٤٤٤ هـ

(1)

ها هم أبطال العراق يُحرّرونَ آخر شبر من الموصل؛ ليعودوا إلى أهاليهم مع زغاريد النصر ورايات السّلام..

كانت (فضة) تعيش نشوتها الخاصّة في تلك الأيّام، حيث إنّ يوم النصر يعني قرب حفل زفافها الذي انتظرته لثلاثِ سنواتٍ مضت.

ما زالت تتذكّر ذلك الموقف الذي جمعها بخطيبها يوم قرّر أن يلتحق بزملائه في ساحات الجهاد، وكان قد مضى على عقد قِرانهما أسبوع واحد!

قال لها حينها: إن رزقني الله الشهادة فلا تنسَيني من خالص الدّعاء.

فأجابته بدموعها: وماذا تفعل بدعائي إن رزقك الله الشهادة؟ إنّها أعلى مراتب الفوز برضوان الله تعالى.

ابتسم حينها وهو يقول: إذن، أنا من سيدعو لكِ كثيرًا هناك من أعلى مراتب الجنان.

قالت بتهكّم: وهل ستتذكّرني هناك وأنت ترفل بالنعيم المقيم بين الحورِ العين والولدان المخلّدينَ الذين يقيمون على خدمتك!!

ضحك من كلّ قلبه وهو يردّد:

- وهل تغارين من الحور العين؟!

ولمّا لم يجد جوابًا منها غير الدّموع، وعدها وطمأنها بأنّه لن ينساها مهما أغدق الله عليه من منزلةٍ عالية في جنّته.

بعد أنِ استعادت فضة كلّ هذا في ذاكرتها، مسحت تلك الدّموع وهي تردّد بصوتٍ مسموع:

الحمد لله الذي سيعيد إلينا (جلالًا) وهو بكامل عافيته.

قالت لها والدتها وهي ترى تلك الملامح السعيدة:

- وأخيرًا يا حبيبتي سيجمعكِ الله بخطيبكِ، ما أسعدني بكما!

هنا تكلّمت (لُجين) وقد علت ملامح وجهها علامات السخرية والاستهزاء:

- ومن قال بأنّ العراق سيتحرّر؟ إنّكم تضحكون على أنفسكم صدّقوني، العراق سيبقى محتلًّا حتى قيام السّاعة!!

ضحكت بصوتٍ عالٍ وهي تلاحظ غضب فضة من كلماتها هذه، ثمّ أردفت قائلةً بكلّ مكر:

- لذلك يا عزيزتي ويا أختي الحبيبة فضة، أدعوكِ من كلّ قلبي ألّا تذهبي مع أحلامكِ ولا تُمنِّي نفسكِ بالزفاف القريب!!

ثمّ لا داعٍ لكلّ هذا الغضب، فماذا تتصوّر مَن ترضى بالزواج من مجاهد؟!!

ابقي يا أختاه عالقةً هكذا، خير من أن تتزوّجي وتصبحي بعد شهر أو شهرين أرملة!!

صاحت بها والدتها: كفاكِ يا لجين!

أمّا فضة فقد ركضت صوب غرفتها باكيةً ناحبة.

صار صوت الأمّ يعلو أكثر فأكثر وهي تلوم ابنتها الصغرى على عدم احترامها لأختها الكبرى قائلة:

- أنتِ تعلمين أنّها حين وافقت على جلال لم تكنِ الحرب قد بدأت بعد..

هنا خرجت فضة من غرفتها وهي تتحدث بثقة:

بل حتى لو كانتِ الحرب قد دقَّت طبولها في وقتها لكنتُ وافقت على تلك الخِطبة، هل سمعتِ يا لجين؟!

والسبب؛ لأنّني لا أنظر إلى الحياة الدُّنيا كما تنظرين إليها أنتِ!

أنا أرى الدُّنيا ممرًّا يوصلني إلى ربّي حيث الراحة الأبدية وحيث لا أحدَ يؤذي غيره..

قالت لجين ولم تكن تتوقّع هذا الموقف من فضة:

- هل تقصدينني أنا بهذا الكلام؟! ثمّ أرجوكِ لا تقولي بأنّكِ تريدين دخول الجنّة فقط حتى لا تريني هناك!!

صارت قهقهات الأخت الصغرى تملأ أرجاء المنزل بينما وضعتِ الأمُّ المريضة يدها على أيسر صدرها ثمّ وقعت أرضًا وهي تردّد: ارحمني يا الله.

ركضت فضة باتّجاهها وصارت تُدلّك بيدها الناعمة مكان القلب المريض لتلك الوالدة المسكينة، وقد قرّرت أن تتجاهل أختها الصغرى بكلّ ما أوتيت من صبرٍ وتحمّل؛ لأجل أن تبقى أجواءُ المنزلِ هادئةً صافية.

(2)

بعد يوم حافلٍ بالمواقف المؤذية، خلدت فضة إلى سريرها وقدِ اطمأنّت لعودة صحّة والدتها إلى طبيعتها..

هنا، رنَّ هاتفها فأضاءتِ الشاشة باسم خطيبها جلال، رفعتِ السّماعة وجاء صوته واثقًا مطمئنًّا كما في كلّ مرّة:

- السّلام عليكِ يا قرة العين.

- وعليك السّلام ورحمة الله وبركاته

- أستغرب أنّكِ إلى الآن لم تتّصلي وتباركي لي عودتي!!

شعرت فضة بالحَيرة، فماذا بوسعها أن تجيبَه؟!

عاد صوته للتساؤل:

- فضة، تسمعينني؟

- نعم، نعم، أنا معك.

- لا أجدكِ بخير!

- ......

- هل تشاجرتِ مع لجين مرّة أخرى؟

- ومَن غيرها؟!

- لا عليكِ، لم تبقَ سِوى بضعة أيّامٍ وتتركين المنزل.

- ماذا تقصد؟!

- لقد تكلّمت مع والدي عن قراري في الإسراع بالزواج ولقد وافق ولله الحمد.

- لكن ماذا عن مكانكم الضيّق؟ أوليس المفروض أن تبنيَ غرفة إضافية في حديقة المنزل؟

- لا، فلقد أقنعت والدي أن نستأجرَ منزلًا صغيرًا يضمّني أنا وأنتِ فقط إلى أن يرزقنا الله تعالى.

- وهل فعلًا سيُخلّصني الله من لجين؟ لا أعرف لماذا يراودني شعور غريب بأنّي سأعيش معها العمر كلّه!

- ما هذا التشاؤم يا فضة؟

- ليس تشاؤمًا يا جلال، صدّقني، لكنّي أشعر بأنّ أختي هذه هي (البلاء) الذي يجب أن أصبر عليه طيلة حياتي..

لا أعرف حقًّا، لكن هذا ما أشعر به كلّما راودتني فكرة التخلّص منها.

ضحك جلال وهو يردّد:

- أيُّ رعبٍ أدخلته في قلبكِ تلك الأخت الصغيرة؟ فأنا لا أراها بهذا القدر من الشرّ يا عزيزتي!!

- أولاً، هي ليست صغيرة، إنّها تصغرني بأعوامٍ قليلة فقط، وثانيًا، هي لا تظهر شرّها أمامك بالطبع، فهي أمام الآخرين تبدو وديعةً هادئة تحاول استمالة القلوب نحوها بأيّ طريقة.

- صدّقيني يا فضة، إنّها ما زالت تعيش فترة المراهقة، وسيصلح الله حالها يومًا ما، فقط تفاءلي وأكثري من الدّعاء لها.

شعرت فضة ببعض السّكينة وهي تستمع لكلمات خطيبها ولتلك الطاقة الإيجابية التي حاول أن يبثّها فيها، قالت أخيرًا:

- وأنت أيضًا، لا تنسَها من الدّعاء، أرجوك يا جلال.

(3)

حقّق الله أمنيّة تلك الأخت الطيّبة لتترك منزل عائلتها إلى حيث منزل زوجها..

قالت لها والدتها وهي تمسح دموع الاشتياق:

- لا أعرف كيف ستكون حياتي من دونك!

كنتِ أنتِ بلسمًا لجراحي، أنتِ من سددتِ مكان أخيكِ المفقود ووالدكِ الراحل.

قبَّلت فضة جبين والدتها وهي تقول:

- أدعو الله أن يقرّ عينيكِ بعودة أخي عبّاس..

اختنقت فضة بعبرتها فهي تعلم بأنّ عبّاسًا لن يعود لكنّها كلمات كانت تردّدها دائمًا؛ لتدخل بعض السرور على قلب والدتها.

مضى ما يقارب الأربع سنوات على ذهاب عبّاس لقاعدة (سبايكر) ولم يعد من يومها!

والدته ما زالت تردّد بأنّه حيٌّ يُرزق، وبأنّها لن تصدّق أن يكون ولدها من ضحايا تلك المجزرة المروّعة..

لا تريد أن تصدّق بأنّ ولدها الشجاع والغيور قدِ استسلم للموت بسهولة ولم يقاوم!

"لقد قاومهم واستطاع الخلاص، وسيعود يومًا ما"

هكذا كانت تردّد تلك الأمّ المفجوعة.

هذا كان السبب الرئيس لمرض قلبها وضعفهِ المستمرّ رغم أنّها لم تبلغِ الخمسينَ من عمرها بعد.

صعدت فضة سيّارة الزفاف وجلست بجانب زوجها وعيونها ترنو نحو والدتها التي كانت تلوِّح لها بيدٍ وتمسح دموعها باليد الأخرى.

أمّا لجين، فلقد أغلقت باب الغرفة على نفسها منذ البارحة ولا أحد يعرف السبب!

كانت كالمجنونة، لم تدع شيئًا قابلًا للكسر في الغرفة إلّا كسرته وهي تهمس بحقد: الجميع يفضّلها عليّ، هي كالأفعى، تحاول أن تدسّ السُّمّ للجميع؛ ليقتنعوا بأنّها المميّزة بإيمانها والتزامها وهدوئها وأدبها،

أمّا أنا فلا يروني غير مُلحدة، جاحدة، حاقدة!

كانت تلك الليلة من أصعب الليالي التي تمرّ على لجين ووالدتها، فما كانتا تتوقّعانِ بأنّ غياب فضة سيترك كلّ هذا الأثر عليهما!

صارتِ الأمّ تذبل يومًا بعد يوم بينما تتفتّح الورود الجميلة في منزل فضة.

***

مضتِ السّنوات حتى أطلَّ شتاء عام (٢٠٢٠) إذِ انتشر وباء كورونا في كلّ العالم، وكانت والدة فضة أوّلَ المُصابين به في عائلتها.

تحوّلتِ الأيّام البيض إلى سوداء حالكة في عيون فضة وهي ترى والدتها تضيع من بين يديها بهذه السّرعة!

وما زاد الأمر صعوبة مرض لجين بنفس الفايروس القاتل..

كانت فضة حاملًا في الشهر الثاني، إنّه الطفل الذي انتظرته منذ ثلاثِ سنواتٍ خلت، وعندما رزقها الله به صار لزامًا أن ترعى والدتها وأختها المريضتينِ بذلك المرض المُميت!

لم تبقَ الأمُّ طويلًا في المشفى فلقد فارقت روحها الدُّنيا على عجل..

في تلك الليلة التي قضتها فضة بالبكاء والنحيب، رأت في منامها والدتها المُتوفّاة وهي تقول لها بكلّ سعادة:

وأخيرًا التقيت بأخيكِ عبّاس، إنّه يرفل بالنعيم مع باقي الشهداء تحت ظلّ سيّد الشهداء عليه السّلام.

استيقظت فضة من منامها وهي تردّد: أمّاه.. أمّاه.. أخي!

وهنا سمعت صوت لجين وهي تئنُّ من شدّة الحمّى..

كانت فضة ترتدي بدلة الوقاية أثناء مداراتها لأختها؛ خوفًا من انتقال العدوى لها خاصةً كونها حاملًا فإنّها ستكون قليلة المناعة حتمًا، اقتربت من أختها الصغرى وهي تسألها بحنان:

- هل تحتاجينَ لشيءٍ يا عزيزة أختكِ؟!

فتحت لجين عينيها بصعوبة وهي تقول بألم:

- وهل فعلًا أنا عزيزتكِ بعد كلّ الذي فعلتُه بكِ في الماضي؟

وما كادت فضة تتكلّم حتى عادت لجين إلى السؤال:

- لماذا تعاملينني بكلّ هذه الطيبة؟ أنا لا أستحقّ هذا منكِ يا فضة!

صمتت فضة وهي تذرف دموع الحزن على أختها، فأكملت لجين بصعوبة:

- استبشري خيرًا يا أختاه، فأنا سأموت قريبًا وستتخلّصين من طباعي السيّئة، لا تقلقي فلن أبقى معكِ أيّامًا طويلة أخرى، سألتحق بأمّي قريبًا.

بكت فضة بشدّة وهي تمسك بيد أختها الوحيدة وتتوسّل إليها أن تتوقّف عن هذا الكلام المؤلم قائلة:

- ستعود صحّتكِ أفضل من السابق، أنتِ ما زلتِ بعمر الورود ولديك مناعة قويّة لمحاربة المرض، أمُّنا ماتت؛ لأنّها مريضة أصلًا وقلبُها مُتعب، كما أنّي رأيتُها اليوم في عالم الرؤيا وكانت سعيدة جدًّا، صدّقيني!

لقدِ ارتاحت أمُّنا برحيلها، وإنّ الله تعالى قدِ اختار لها تلك الدار الآخرة؛ لأنّها كانت محتاجة فعلًا إلى الراحة الأبدية.

أمّا أنتِ يا حبيبتي، فما زالتِ الطريق أمامكِ طويلة، والحياة تنتظركِ إن شاء الله تعالى.

نزلت دموع لجين على خدّيها وهي تستشعر دفء يدَيّ فضة رغم كون الأخيرة كانت ترتدي قفازات الوقاية في كلتا يديها الحانيتينِ.

وأخيرًا، قرّر الطبيبُ المُشرفُ على حالة لجين خروجَها من ردهة العزل بل خروجها من المشفى بالكامل.

في الوقت نفسه قرّرت فضة بعد مشاورة زوجها أن تأخذ أختها الوحيدة؛ لتعيش معها في منزلهما الصغير والجميل الذي اشترياه مؤخّرًا.

بدأت لجين حياةً جديدةً قرّرت فيها أن تبحث عن (الله تعالى) بكلّ وجودها وكيانها، فلقد عاهدت نفسها إن شُفِيت من ذلك الوباء القاتل فإنّها ستبدأ رحلة البحث عن الله تعالى.

في ذلك المنزل المفعم بالإيمان والتقوى تمّ تخصيص غرفة صغيرة للقادمة الجديدة (لجين).

قالت لأختها وهي ترتّب أغراضها داخل الخزانة:

- ولكن هذه الغرفة مخصّصة للمولود القادم، صحيح؟!

ابتسمت فضة وهي تمسح على بطنها بحنان:

- ما زال أمامنا ما يقارب الستة أشهر على مجيئه، مّن يدري؟ لعلّك تتزوّجينَ في هذه الفترة!

ضحكت بكلّ محبّة وهي تمسك يد أختها، وكانت هذه ضحكتها الأولى بعد وفاة والدتها..

أردفت قائلة:

- وإن لم يحصل ما أرجوه لكِ فسنحشر المولود الجديد في نفس الغرفة مع خالته الحنون الودود لجين.

نظرت إليها لجين بعيونٍ تلألأت بدموع الندم:

- أيُّ أخلاقٍ هذه التي تملكينها يا فضة؟

لقد عذّبتُكِ لسنوات طويلة وأنا أسخر من التزامكِ وإيمانكِ وتقواك!

واليوم تسنديني بكلّ قوّتك، عرَّضتِ نفسكِ وجنينكِ للخطر ودخلتِ معي ردهة العزل الصحّي، تركتِ بيتك لأيّامٍ طويلة ونسيتِ فيها حتى الاتّصال بزوجكِ والاطمئنان عليه، كلّ هذا لأجلي!

فهل حبّ الله سبحانه هو الذي يجعلكِ تعاملينَ الناس بكلّ هذه الرحمة والمحبّة؟!

صمتت فضة وهي مُندهشة من أختها التي ذكرت لفظ الجلالة بكلّ احترام لأوّل مرّة منذ زمنٍ طويل!

لم تجبها فضة على سؤالها بلِ استمرّت في ترتيب الغرفة بينما صارت لجين تتصفّح هاتف فضة بكلّ اهتمام؛ لترى إذا ما كان بإمكانها أن تتآلفَ مع الاهتمامات الدينيّة لأختها.

صارت تفتح البرامج الدينيّة وتقرأ عناوين الكتب الإلكترونيّة، ثمّ اتّجهت أناملها نحو مواقع التواصل الخاصّة بفضة وصارت تتصفّحها الواحدة تلو الأخرى حتى شعرت بالصداع يضرب رأسها، قالت أخيرًا:

- لا أعرف كيف تحبّين القراءة الإلكترونية! هذه المكتبات والقنوات ضخمة المحتوى تشعرني بالدوار...

ابتسمت فضة وهي تقول:

- إن كنتِ تبحثينَ عن كتب هادفة فأنصحكِ بقراءة الشبابيّة منها، فهي تنفع المبتدئينَ أمثالكِ حيث إنّكِ ممّن لا يحبّ القراءة والاطّلاع كثيرًا.

- نعم، صحيح، فأنتِ تعلمين أنّه لا شغل لي مع الكتب، ولكن هاتِ ما عندك من هذه التي تسمّينها كتبًا شبابيّة.

أخذت فضة الهاتف من أختها واتّجهت صوب رسائلها المحفوظة وحدّدت ثلاثةً من الكتب الشبابيّة الهادفة لترسلها إلى حساب أختها وهي تقول: حوّلتّها إليكِ، هي الآن في هاتفكِ.

(5)

لأوّل مرّة تشعر لجين بشوقها لأخيها الشهيد (عبّاس)

لم تكن قريبةً منه في أيّام حياته؛ بسبب التزامه بالدّين، فلطالما حاول نصحها وإرشادها إلى تعاليم الإسلام لكنّها كانت تبتعد كلّما حاول الاقتراب!

أمّا اليوم وبعد مرور كلّ هذه السنوات على رحيله، تجد نفسها بحاجةٍ ماسّة إليه وإلى تعاليمه وصوته الحنون، سحبت هاتفها وكتبت في محرّك البحث (لقاء مع الناجي الوحيد في سبايكر) ورغم أنّه قد مرّ وقتٌ طويلٌ على ذلك اللقاء الذي جرى منذ حصول تلك الجريمة الشنعاء إلّا إنّها لم ترغب في مشاهدته حينها، وها هي اليوم ستستمع للمرّة الأولى إلى أحداث تلك المجزرة التي كانت سببًا في مقتل أخيها.

بدأ الفيديو بكلمات الناجي الوحيد وهو يسرد تفاصيل دقيقة عن تلك المجزرة في مؤتمرٍ ثقافيٍّ وهو يقول:

السّلام عليكم، معكم الناجي الوحيد من مجزرة سبايكر (علي حسين كاظم) من محافظة الديوانية..

في البدء أريد أن أوضّح حقيقةً وهي أنّ الناجين من قاعدة سبايكر كثيرون لكنّهم كانوا قد نجوا من القاعدة وليس من المجزرة! فأنا الوحيد الذي نجيت من المجزرة نفسها، فكنت من الذين تمّ إلقاؤهم مع باقي الجثث إلى وادي الموت لكنّ الله شاء أن أعيش؛ لأنقلَ لكم حجم المأساة ومجريات المجزرة التي حصلت في ذلك اليوم..

تبدأ القصة من اليوم التاسع من شهر حزيران (سنة ٢٠١٤) عندما اختفى الضبّاط المسؤولونَ عن قاعدة سبايكر فجأة، في يوم الحادي عشر من نفس ذلك الشهر أحكم علينا الجوع والعطش والفوضى، تخيّلوا مدرسة ويغيب عنها المدير والمعلّمينَ، ماذا يحصل فيها من فوضى عارمة؟!

في ذلك اليوم جاء ما يقارب ١٧٠٠ شخصٍ من عمليات صلاح الدين هربًا من خطر الدواعش وصاروا يلجأون إلى القاعدة باعتبارها مكانًا آمنًا لا يمكن اختراقه بسهولة (فهؤلاء الذين يقولون إنّ الشهداء فقط ١٧٠٠ شخص هم مخطئونَ حتمًا؛ لأنّ هذا العدد يمثّل فقط مَن جاء إلى القاعدة في ذلك اليوم)

في اليوم التالي، ومنذ الصباح، رأيت الجنود وهم يخرجون من القاعدة بعد أنِ انتشر خبرٌ بين الجميع بأنّهم قد أعطونا إجازة والكلّ يجب أن يذهب إلى بيته!

لم يبقَ في القاعدة غير (٢٠٠ جندي) هؤلاء هم الناجونَ من القاعدة، أمّا كلّ مَن خرج كان مصيره القتل في تلك المجزرة!

حاول جنود الفرقة الذهبية الذين صادفناهم في الطريق مَنعنا وإرجاعنا حتى أنّهم صاروا يرمون فوق رؤوسنا لنعود، وكانوا يخبروننا بأنّ خروجنا يعني القتل من قِبل الدواعش لكن هناك من كان بيننا من المندسين الذين كانوا يشجّعوننا على الخروج وإغرائنا بأنّ الطريق آمن ولا صحّة لكلّ ما يقال!!

وما أن وصلنا إلى جامعة تكريت حتى رأينا الدواعش..

في البداية كان كلامهم معنا بأنّنا لا نريد أن نؤذيكم فأنتم أبرياء ليس لكم ذنب في تواجدكم هنا، أنتم في النهاية أولادنا والذنب هو ذنب حكومتكم التي أرسلتكم إلى هنا!

جاؤوا بسيّارات خاصّة بحجّة أنّهم يريدون مساعدتنا في الرجوع إلى أهالينا وكانت خطّة لتفريقنا إلى مجاميع؛ لتسهل السيطرة علينا فيما بعد، لذلك أنا اتأذّى عندما أسمع أصواتًا من هنا وهناك اليوم وهم يتساءلون: لماذا سلّمتم أنفسكم بهذه السهولة؟!

والله يا أخوتي، نحن لسنا جبناء لكنّنا ذهبنا مغدورين، فلم يكنِ الدواعش بمفردهم وإنّما أنا رأيتُ بأمّ عيني سيّارة همر أحادية يقف خلفها مئات المدنيين الذين لم يظهروا لكم في التصوير أولئك جميعهم كانوا يدعمون الدواعش ضدّ أبنائنا!

ما أن صعدنا إلى السيّارات حتى توجّهوا بنا إلى القصور الرئاسية، بعض السيّارات استطاع شبابنا السيطرةَ على سائقيها لكنّهم ما أن أوقفوها ونزلوا منها حتى جاءتهم العيارات النارية من كلّ صوب، كما رأيتُ بأمّ عيني بعض شبابنا قد نزلوا من تلك السيّارات واتّجهوا بسرعةٍ صوب المدنيين الذين كانوا واقفين للتفرّج واختفوا بينهم فإذا بالمدنيين ينادونَ بأعلى أصواتهم ليرشدوا الدواعش إلى أولئك الشباب!

دخلنا القصور الرئاسية، كانت هناك مجاميع، تمّ قتلهم مباشرةً، وصرنا نسمع إطلاقات النار تنهال عليهم منذ أوّل دخولنا، أمّا مجموعتنا فلقد ربطوا أيادينا ووضعونا في كرفان واحد حتى صرنا لا نستطيع التنفّس من شدّة ضيق المكان وأعدادنا الكثيرة وهم يردّدون: ادخلوا يا خنازير.. ادخلوا يا كلاب!

كنت شديد العطش حينها فطلبت القليل من الماء فانهال أحدهم عليّ بالضرب المبرح وهو يصرخ بي خذ هذا الماء، ولم يكف عن الضرب حتى أخبرته بأنّني ارتويت ولست بحاجة إلى الماء فلم أعد أشعر بالعطش!!

صارت أصوات البكاء من الحاضرين الذين يستمعون إلى هذا الناجي الوحيد ترتفع وهو يبكي معهم ويردّد: السّلام عليك يا أبا عبد الله، أمّا لجين فلقد غرقت بدموعها هي الأخرى وصارت تردّد معه دون أن تنتبه على نفسِها:

السّلام على شفاهك الذابلة يا حسين، السّلام على عيالك العطاشى يا سيّدي!

ثمّ تساءلت وهي تمسح دموعها: هل كان أخي عبّاس معك يا علي؟! أين عبّاس في وقتها وما شعوره؟ لا أظنّه كان خائفًا، فأخي شجاع وصاحب غيرة وحمية، كرامته فوق كلّ شيء

وكأنّ ذلك الشابّ علي قد سمع تساؤلاتها فصار يتكلّم وهو يسرد للحاضرين في المؤتمر باقي المجريات:

أتذكّر أنّ هناك شبابًا صاروا يصرخون بأعلى أصواتهم: نحن أولاد عليَ الكرّار، إن غدرتم بنا اليوم، فسيأخذ أولادنا بثأرنا..

أمّا هم أي الدواعش، فكانوا يصرخون: الثأر لصدام! ثمّ صاروا يمزّقون ما كنّا نرتديه تحت ملابسنا من بيارغ كتبنا عليها أسماء أئمّتنا عليهم السّلام.

أوقفونا ونحن مكتوفو الأيدي بجانب بعضنا ورموا الرصاصة الأولى على الذي بجانبي فسقط مضرّجًا بدمائه، حينها ذهب كلّ الخوف من قلبي وصرت أتكلّم مع نفسي بأنّ دوري سيأتي بعد هذا الشهيد مباشرةً فلِمَ الخوف وأنا راحل إلى العالم الآخر شهيدًا مظلوما؟ هنا تراءت أمامي ابنتي ذات السنة والنصف (وأنتم تعرفون ما لهذا العمر من مكانة في قلب الأب) ثمّ تذكّرت ولدي (موسى الكاظم) وكان عمره حينها أربعينَ يومًا فقط!!

بعدها صار الرمي كثيفًا وصارتِ الرصاصات تنهال علينا كالمطر لكنّي لم أشعر بأيّ إطلاقة تصيبني إلّا إنّ الدّماء الحارّة للشهداء من زملائي كانت تلفح وجهي ولم أشعر إلّا وركلة قوية تدفعني نحو أسفل الوادي مع باقي رفاقي، حينها عرفت بأنّي لم أمت بل لم يُصبني أيُّ طلقٍ ناريٍّ من أسلحتهم تلك!

سمعت الشخص الذي كان قريبًا مني ينادي بصوتٍ خافتٍ ومُتعب وهو ينزف من رأسه: تعال أيّها الملعون واقتلني، فأنا ما زلتُ حيًّا!

(أوقفت لجين المقطع وأجهشت بالبكاء وهي تتخيّل بأنّ هذا الجريح هو عبّاس لا غيره)

جاء أحدهم وصار يرمي عليه، كنت أتصنّع الموت، لكن هناك مساحة صغيرة من عيني أبقيتُها مفتوحةً؛ لأرى ما هم فاعليه فأحسَّ بي أحدهم ورأى بأنّني ما زلت أتنفس فنادى على سيّده وهو يقول: هذا ما زال حيًّا لنقتله، فأجابه: اتركه، دعه يتألّم من شدّة النزف فهو رافضي يجب أن يتعذّب قبل أن يموت!

بعدها سحبوني إلى الأسفل وأنا أحرّك جسمي قليلاً؛ حتى أُبعِد الجثث عنّي وحتى لا أدفن حيًّا تحتها فلقد صاروا يرمون بالجثث الواحدة فوق الأخرى، ثمّ تركوا جثث الشهداء ورحلوا جميعهم عن المكان بحجّة حلول وقت الصّلاة!! فاستغللتُ الفرصة واتّجهت بصعوبةٍ وخفاءٍ نحو شاطىء نهر دجلة، وهناك وجدت شخصًا اسمه (عبّاس) من أهالي الناصرية بين القصب!

أثار هذا الاسم شجون لجين وأصبحت حالتها يرثى لها، صارت تضرب على رأسها بكفّيها وهي تصرخ: آهٍ عليك يا عبّاس، آهٍ عليك يا أخي!!

أكملتِ المقطع بصعوبةٍ وهي تستمع:

كان عبّاس أحد الناجين من مجموعة أخرى، وكأنّ الله أرسله لي؛ ليفتح ذراعيّ المربوطتين ويطلق لي أكتافي، ولولاه لا أعلم ما كان قد جرى لي حينها!

كان عبّاس مكسور الأضلاع بعد أن رموه بشدّة إلى أسفل الوادي فصار لا يقوى على الحركة بشكل جيّد وبالكاد يستطيع التنفّس، صارت حالته تسوء يومًا بعد يوم، وكنت أنا أجلب له الماء؛ ليشرب ويبقى حيًّا، في حين كان هو يشجّعني على العبور وتركه في مكانه قائلًا لي: يجب أن تعيش يا صديقي، لا يجب أن نموت نحن الاثنانِ معًا، اتركني وارحل، وعندما تصل لأهلك سالمًا اتّصل بأهلي وأخبرهم بأمري.

حينها عملت له فراشًا من القصب وجعلته عاليًا بعض الشيء؛ حتى لا تؤذي جسمه الأحجار الصغيرة التي ملأتِ النهر وقرأت الفاتحة لأمّ البنين عليها السّلام؛ لتسهيل أمر وصولي إلى الجهة الثانية..

ولأنّني ولمدّة أربعة أيّامٍ بلا طعام ولا نوم، ومن شدّةِ التعب والإرهاق والجوع، شعرت حينها بأنّ قواي قدِ انهارت تمامًا، كنت أغفو وسط طريقي إلى الضفة الأخرى فأسمع فجأةً صوتَ شخص يمشي خلفي ممّا يضطرني إلى النهوض ومواصلة السير، وعندما أغفو ثانية يأتيني

نفس ذلك الصوت فأعود للقيام والمواصلة، وإلى الآن لا أعرف ما كان ذلك الصوت ولماذا كنت أسمعه كلّما غفوت!

لكنِ الذي عرفته بعد ذلك أنّني كنت وسط القصور الرئاسية ولو بقيت فيها فترة أطول لوجدوني وقتلوني، واصلتُ المسير حتى وصلت إلى الجهة الثانية فوجدت غرفة مهجورة غفوت فيها حتى الصباح ثمّ خرجت منها، رأيتُ بيوتًا كثيرةً أمامي لم أعرف إلى أيّ بيتٍ منها أتّجه وأيّ بابٍ منها أطرق؟!

تذكّرتُ وصية عبّاس لي حينما قال: إيّاك أن تطرق باب الأغنياء، فهؤلاء أكثرهم مع الدواعش!

أغمضتُ عيني، وتوكلتُ على الله، وقلتُ له: أفوّض أمري إليك يا إلهي، أنت الذي ترشدني إلى مَن يساعدني ويرأف بحالي فلا يقتلني..

وفعلًا، أغمضتُ عيني ومشيت؛ لأجد نفسي أمام منزل خاف أهله من استضافتي في البداية ثمّ أكرموني بطعام وأخذني صاحب ذلك المنزل على درّاجته؛ ليوصلني إلى تكريت، في أثناء صعودنا الدرّاجة خرج شابٌّ من المنطقة وصار يصرخ خلفنا بحجّة أنّه يحمل سلاحًا فنزل الرجل من درّاجته وصار يحاول إقناعه بأنّي مظلوم ولا ذنب لي فاتّضح بأنّ ذلك الشابّ لا يملك سلاحًا أصلًا! فاقتنع بكلام الرجل وأخذني معه إلى منزلهم وكانوا أناسًا معروفين من عشيرة الدليم فرحّبوا بي وصاروا يبكون بقوّة عندما علموا بقصّة عبّاس وحاولوا الذهاب إلى مكانه لإحضاره لكنّهم لم يستطيعوا لخطورة المكان الذي كان فيه.

موقف هذه العائلة صراحةً يجعلني أقف ضدّ فكرة بأنّ أهل السُنّة جميعهم أهل غدرٍ وخيانة! ويشهد الله إنّ أكثرهم كانوا غير راضين بما يحصل لإخوانهم الشيعة.

بعد ذلك انتقلت من منزلهم إلى منزل أخٍ آخر من عشيرة المرسومي، وبقيتُ لديه ثلاثة أيّام، تمكّنت فيها من الاتّصال بأهلي؛ لأُطمئِنَهم بأنّي ما زلتُ حيًّا وكان أهلي في حينها يَعدّون العدّة لإقامة مجلس الفاتحة والعزاء على روحي!

في اليوم الرابع انتقلت إلى مدينة العَلَم (وكلّ هذه التنقّلات كانت أمنية لأجل سلامتي بعد أن وصل خبر للدواعش بأنّ هناك مَن لا يزال حيًّا من الجنود وهو يسكن في أحد بيوتات أهل السُنّة) حيث استضافني هناك كلٌّ من الأخ خميس وجاسم جبارة والشهيدة أمية جبارة رحمة الله عليها (التي قاتلتِ الدواعش بعد ذلك واستشهدت) وبقيتُ لديهم ما يقارب الستة عشر يومًا حتى دخول داعش إلى تلك المدينة، فأخذوني إلى خارج المدينة وبالتحديد إلى بستان فيه عائلة طيّبة قرّر صاحبها واسمه فراس أن يضحّي بعائلته لأجل وصولي إلى أهلي، فكان يقول لي: لا تقلق يا علي، إن كان يجب أن تموت فسنموت قبلك!

وضع فراس زوجته وأطفاله وأمّه في سيّارة مكشوفة ووضع معهم قنينة غاز وأجهزة منزلية؛ ليوهم الدواعش بأنّهم مهاجرون، وكانوا قد عملوا لي هوية مزورة باسم عدنان خالد محمد العبيدي/ طالب جامعي، وصاروا لا ينادونني إلّا باسم (عدنان) فجلست معهم وسط تلك السيّارة بحجّة أنّني واحدٌ منهم ثمّ مضى بنا فراس نحو كركوك فكانت هناك عشرينَ سيطرة بين الحويجة وكركوك يجب أن نجتازها دون أن يشكّوا بنا، وعند السيطرة الأخيرة قال لي فراس ومَن كان معه من الأخوة: علي، إن عبرنا هذه السيطرة فلقد نجوت، وإن كشفوا أمرنا فسنذهب جميعنا شهداء!

وبفضل الله تعالى تمّ اجتيازها بسلام وأوصلوني إلى كركوك ثمّ إلى أربيل وهناك جاءني عمّي وعدتُ معه إلى محافظتي (الديوانية) وكان الطريق لا يخلو من خطورة أيضًا حتى أنّنا لم ننزل في الطريق إلّا لزيارة الإمام موسى الكاظم (عليه السّلام).

بعدها تواصلتُ مع أهل الشهيد عبّاس وأخبرتهم بما جرى له ثمّ عدتُ مع والده بعد فترة وجيزة إلى منطقة القصور الرئاسية؛ لننتشل جثته من هناك.

أغلقت لجين الفيديو وصارت تلطم على وجهها وهي تصرخ: آهٍ عليك يا أخي يا عبّاس!

لم يكن ذاك الشهيد الذي وردت قصّته في الفيديو أخاها عبّاسًا لكنّها كلّما سمعت اسمه شهقت وتخيّلته هو بعينه.

(6)

ساءت حالة لجين كثيرًا وهي تعيش وسط ذكريات لا تستطيع تجاوزها، وبعد تفكير طويل قرّر جلال أن يأخذ فضة ولجين معه إلى مجلس صديقه يوسف الملائكيّ، حيث المحاضرات والدروس الروحيّة وكذلك الأدعية والمناجيات المؤثّرة في النفس، قال لزوجته:

- هذا ما تحتاجه لجين حاليًا..

سألته فضة بدهشة:

- لكنّ الظرف حرجٌ جدًّا يا جلال! ودائرة الوباء تتّسع يومًا بعد يوم، فكيف يقيم صديقك المجالس والتجمّعات في منزله؟!

- نعم، صحيح، لكنّ مجلسهم أسبوعي، فهو يقتصر على ليلة الجمعة من كلّ أسبوع فقط حيث دعاء كميل ودعاء التوسّل وزيارة عاشوراء وغيرها من الأدعية والزيارات، وما أحوجنا إلى هذه الطقوس في مثل هذا الظرف! ولعلّ الله يستجيب لأصوات عباده وهم يستغيثون به في ليالي الجمع المُباركة فيكشف عنهم وعن العالم أجمع ما ألمَّ به من كارثةٍ حقيقية.

- حسنٌ يا جلال، سأخبر لجين بالأمر لعلَّ الله يهيء لها فرصة الهداية والصلاح من خلال هذه المجالس، بالإضافة إلى الراحة والطمأنينة التي من الممكن أن تحصل لها في هكذا أجواء روحيّة.

- نعم يا فضة، وهذا ما أردته بالضبط، لكن ضعي في الحسبان أنّه لا يمكنكما الدخول إلى المجلس من غير كمامات وقفازات ومواد التعقيم.

- حسن جدًّا، هذا يجعلنا مطمئنّينَ أكثر من الناحية الصحية وبذلك نكون قد أخذنا بالأسباب الحسية والغيبية معًا.

***

اقتنعت لجين أن ترافقهما حيث مجلس الأستاذ يوسف والذي يلقّب بين أصحابه في أيّام الخدمة العسكرية بـ(يوسف الملائكيّ) أو (الشهيد الحيّ) لشدّة التزامه بالدِين وحبّه للجهاد والشهادة.

وصل الثلاثة إلى حيث المجلس الأسبوعي في أوّل ليلة جمعة تحييها لجين بالدّعاء والاستغفار..

صعدتِ الأختان إلى الطابق الثاني الذي يطلّ على باحة كبيرة في وسط الدار حيث استقرّ يوسف والشباب من حوله، شعرت لجين براحة كبيرة وهي ترى التنسيق الجميل والأخذ بأسباب السلامة في ذلك المجلس فضلاً عن الاستقبال الرائع الذي قدّمته لهما كلٌّ من والدة يوسف وأخواته.

كانتِ المحاضرة الدينيّة عن محبّة الله لعباده ورأفته عليهم وقد شكرت لجين الله في سرّها أن وفّق يوسف لاختيار هذا المحور الذي كانت بأشدّ الحاجة لمن يتحدّث لها عنه! لكنّها في نفس الوقت كانت تشعر بالحاجة إلى إجابات واضحة عن أسئلة ما زالت في جعبتها..

قرّرت أن تأخذ عنوانه الافتراضي على مواقع التواصل؛ لتسأله عن تلكم الأسئلة المحيّرة لعلّه ينفعها بإجابات شافية ووافية.

في المنزل وما أن طلبت من زوج أختها عنوان صديقه يوسف حتى ابتلع ريقه وتبادل نظرات الاستهجان هو وزوجته وهو يحدّث نفسه بالقول: لعلّي أخطأت حينما أخذتها إلى هناك! وأيّ ورطة سأوقعك فيها يا يوسف!!

مرّرت لجين كفها أمام وجه جلال وهي تسأله باستغراب:

- بربّك، هل طلبي غريب إلى هذه الدرجة؟!

- ....

أعادتِ السؤال بصيغةٍ أخرى ونبرةٍ أعلى:

- جلال، أين سرح فكرك يا أخي؟!!

انتبه جلال بعد أن وكزته فضة بمرفق ذراعها وهي تحمحم لإثارة انتباهه، أجابها أخيرًا وقدِ انتبه إلى الموقف المحرج الذي وضع زوجته فيه أمام أختها المنتمية حديثًا إلى دين الله تعالى:

- لا شيء على الإطلاق، سأعطيكِ إيّاه.

ثمّ خفض صوته وهو يهمس لزوجته بالقول: وكان الله في عون يوسف.

سمعت لجين ما قاله رغم أنّه خفض صوته كثيرًا، فقالت بامتعاض:

- لماذا تشعرني بأنّ صاحبك هذا هو يوسف الصدّيق بعينه وإنّني أنا زليخا التي تحاول أن تنصب له الخُدع والمكائد؟!

ضحك جلال وهو يحاول تهدئتها بالقول:

- أستغفر الله، لا، لن يصل إلى درجة نبي الله يوسف عليه السّلام لكنّنا أصحابه نُسمّيه يوسف الملائكيّ لشدّة التزامه بالدّين والأخلاق الفاضلة، لذلك لا أتوقّع أن يردّ على رسائلكِ يا أخيّتي.

نفّذت لجين ما كان يجول في خاطرها وأرسلت أوّل رسالة إلى يوسف تتضمّن إلقاء التحيّة والشكر على مجلس اليوم..

انتظرت طويلاً ولأسبوع كامل أن يردّ يوسف على رسالتها لكن دون جدوى!

(7)

ها هي لجين تحضر مع جلال وفضة المجلس الثاني ليوسف، انتهى المجلس وبدأ الحضور بالانصراف بعد جلسة تمتّعت كسابقاتها بروحيّةٍ عالية..

نزلت لجين مهرولةً صوب الطابق الأوّل فقابلتِ الحاجّ إبراهيم والد يوسف فاستوقفها قائلًا باستهجان:

- احذري يا ابنتي، لماذا تركضين بهذه السرعة؟ ألا تخشينَ السقوط؟!

قالت وهي تلهث:

- لا تخشَ عليَّ يا حاجّ فأنا سأسقط واقعًا إن لم أتكلّم مع الأستاذ..

سألها بتعجّب:

- أيّ أستاذ تقصدينَ؟!

- يوسف، الأستاذ يوسف.

- لكن يا ابنتي، هو لا يتكلّم مع النساء البتّة!

ثمّ استطرد قائلًا بغضب بعد أن رأى إصرارها العجيب:

- اكتبي ما تريدينه في ورقة، وسيكتب لكِ جوابه بإذن الله.

- لا يا عمّ، لو كان يريد الكتابة لأجابني عندما راسلته على صفحته الشخصية.

تركت أبا يوسف منغمرًا بدهشته منها واتّجهت نحو ولده الذي كان منشغلًا في الحديث مع جلال..

قالت بلهفة:

- مرحبًا أستاذ..

ارتبك يوسف، وذهل جلال، فبقي صامتًا وكأنّه لا يعرفها!

قال يوسف وقد خفض بصره أرضًا:

- حيّاكم الله، تفضّلوا..

- أستاذ، راسلتك في الخاصّ لكنّك لم ترد! فهلِ الدّين يمنع من ردِّ السّلام حتى؟!

صمت يوسف وبدأت قطرات العرق تتصبّب من جبينه، عادت إلى السؤال:

- أنا جديدة العهد بالدّين، تستطيع أن تقولَ: إنّي كنت شبه ملحدة، أمّا الآن وبعد أن منَّ الله عليَّ بالهداية فأحتاج إلى مَن في مثل علمك أن يكون لي مرشدًا وناصحًا، فماذا تقول؟!

- ماذا أقول؟! وفي أيّ شيءٍ بالضبط؟!

- في أن تكون مرشدي وأستاذي، لن آخذ من وقتك الكثير، صدّقني.

قال يوسف بتعجّب:

- وكيف ذلك؟

- عن طريق الرسائل في الإنترنت.

شاهد جلال ارتباك صديقه فخاطبها بعصبية:

- كفاكِ يا لجين!

رفع يوسف رأسه لينظر لصديقه بدهشة، ونظراته تقول: هل تعرفها يا جلال؟!

قالت لجين وقد بدت متأثّرة:

ـ ولكن ما بك يا جلال؟ هلِ السؤال عن الدّين حرام؟! كيف أفهم طريقي الذي بدأتُه للتّو إن لم يكن هناك من يرشدني؟ عشرات الأسئلة تدور في ذهني ولم أجد لها جوابًا عندك أنت وفضة بل لم أجد لها جوابًا في مكتبتك الكبيرة حتى!!

فماذا لو ساندني الأستاذ يوسف ووقف معي في طريق الهداية هذا؟

صار صوتها يرقُّ كثيرًا فبدت وكأنّها تبكي ورغم هذا لم تلقَ جوابًا شافيًا من الرجلين! عادت إلى التحدّث مع يوسف:

ـ أستاذ يوسف، أنت ترى أنّ والدك لا يحبّذ دخولي مجلس الرجال هذا، فرغم أنّه لم يبقَ معك أحد بعد المجلس غير زوج أختي لكنّ الحاجّ منعني من الدخول، أو لنقل أنّه حاول منعي..

لذلك أتوسّل إليك أن تفتح رسائلي وتجيبني عن تساؤلاتي التي باتت تؤرّقني، أُقسم عليك بكلّ عزيزٍ ومقدّسٍ لديك.

هنا، رفع يوسف رأسه لا إراديًا فلاحظ قطرات الدّموع التي صارت تتدحرج على خدّيها مثل حبّات اللؤلؤ التي تتدحرج من عقدٍ مكسور!

خفض رأسه وهو يقول لها بأدب:

ـ إن شاء الله أختاه، سأحاول التواصل معكم عن قريب، أسأل الله لكم التوفيق والسّداد.

أشار إليها جلال؛ لترافقه إلى الخارج وهو يتمتم بكلمات الشكر والامتنان لصديقه الودود يوسف.

(8)

في المنزل عاتب جلال زوجته على سماحها لأختها بذلك التصرّف، فردّت عليه فضة بالقول:

- أقسم بالله أنّي لم أكن أعرف نيّتها بالدخول عليكما!

- هل تصدّقين؟ لقد وضعتني في موقف محرج أمام يوسف ووالده، يشهد الله أنّي تمنّيت لو أنّ الأرض انشقّت وبلعتني!

انا لا أعارض تواصلها مع يوسف لكنّها لو أخبرتني أنّه لم يردّ على رسائلها لعملت مجموعة خاصّة بنا نحن الثلاثة وجعلتها تسأله ما بدا لها فهذا أفضل بكثير من أن تبقى تراسله على الخاصّ وحدهما.

- لكنّها طلبت اسم صفحته الشخصية منك وأنت من أعطيتها إيّاها، ألَا تذكر؟!

- نعم أذكر، وكنت متأكّدًا أنّه لن يجيبها، لكنّها لم تخبرني بأنّها مُصرَّة على التواصل معه!

قالت فضة بألم:

- إذن، أنت أعطيتها اسم الصفحة؛ لتتخلّص من إلحاحها ولم تفكّر بأنّها محتاجة فعلاً إلى مَن يقف معها ويرشدها..

خفض جلال رأسه وهو يتمتم: نعم، إنّها غلطتي منذ البداية، صراحةً يا فضة، أنا أعترف بتقصيري تجاه لجين وأسأل الله أن يغفر لي.

***

في غرفتها الصغيرة أعادت لجين مراسلة يوسف بإلقاء التحيّة، فما كان منه إلّا أن فتح الرسالة وصار يكتب:

- وعليكم السّلام والرحمة، حيّاكم الله..

تفضّلي أختنا، ما الأسئلة التي أردتم منّي الإجابة عنها؟

كتبت:

- حيّاك الله أستاذ، في البدء أشكر لك كرمك في التفضُّل بالردّ على حقيرةٍ مثلي.

قاطعها:

- حاشاكم أختاه!

- إن كان كذلك، فلماذا لم تردّ على رسائلي كلّ هذه الفترة؟

- أترك الإجابة عن هذا السؤال لأخي جلال وهو من سيجيبكِ عنه إن شاء الله، الآن باشري بطرح الأسئلة إن أمكن.

- حسنٌ أستاذ، ما دليلنا على وجود عالم آخر بعد الموت؟ وبأنّ هناك ثواب وعقاب على أعمالنا في هذه الدنيا؟

فأنا آمنت بوجود الله خاصّةً بعد أن قرأت كتب العلماء الذين كانوا ملحدين ثمّ بعد ذلك توصّلوا من خلال البحث إلى أنّهم كانوا على خطأ، أمثال (توني فلو) وغيره..

إضافةً إلى ذلك ما مررنا به من ظروف الوباء، وتحدّي القدرة الإلهية لنا نحن البشر من خلال فايروس لا يُرى بالعين المجرّدة، اجتاح الكرة الأرضية فاختلّت أنظمة الحياة البشرية في العالم أجمع بسببه، ولأشهرٍ طويلة جعلني كلّ هذا أؤمن إيمانًا قطعيًّا بأنّ الله موجود.

لكنّي رغم كلّ هذا ما زلت أفكّر بالتالي: من يؤكّد لنا بأنّ هناك عالم آخر وحساب وثواب بعد حياتنا هذه؟!

هل رجع أحد الموتى من ذلك العالم ليخبرنا ماذا هناك؟!!!

كتب يوسف بعد أن رأى أنّها قد توقّفت عنِ الكتابة:

- اسمحي لي أن أجيبكِ بسؤال:

إن حصل وظهر لنا بعد الموت بأنّ هناك عالم آخر، فمنِ الذي سيكون في محلّ خسارة؟ المؤمن أمِ الملحد؟

كتبت:

- الملحد طبعًا..

- حسنٌ، سؤال آخر:

إن ظهر بعد الموت بأنّه لا يوجد عالم آخر، فمن سيكون في محلّ الخسارة؟!

كتبت:

- لا أحد على الإطلاق!

- ولماذا؟

ـ لأنّه يعني بأنّ الإنسان قد ذهب إلى (العدم) فلن يشعر بالخسارة مطلقًا؛ لأنّ روحه ببساطة لن تعود إلى الجسد مرّة أخرى.

ـ وإن عادت؟!

ـ فهذا معناه أنّ هناك آخرة، وإلّا كيف عادت؟

ـ فهل تلاحظينَ معي بأنّ المؤمن في الحالتين لم يخسر شيئًا؟!

أمّا الملحد، ففي حالة وجود الآخرة أنّه قد خسر كلّ شيء.

وبهذا فعلى البشر أن يحكموا عقولهم، ويضعوا هذه الحقيقة أمام أعينهم؛ ليعلموا بأنّ النجاة هي في اتّباع طريق الإيمان بوجود الآخرة شئنا ذلك أم أبينا.

(9)

بعد أن شكرته على إجابته، أغلق يوسف هاتفه وأغمض عينيه فتراءت صورتها أمامه..

(لجين) ذات الوجه المستدير والعينينِ الناعستينِ والصوت المرتجف من شدّة الألم والحزن!

دموعها في تلك الجلسة أثناء لقائهما وجهًا لوجه حكت له عن صدق نيَّتها في البحث عن الحقائق الإلهيّة..

تساءل مع نفسه بدهشة:

ولكن، لماذا أنا الآن أستحضرها في مخيّلتي؟! أعوذ بالله منك يا إبليس!

***

في الصباح خرجت لجين من غرفتها متّجهة نحو المطبخ، فوجدت كلًّا من فضة وجلال جالسَين حول طاولة الطعام، سكبت على وجهها رشّةً من الماء ثمّ سحبت كرسيها وجلست معهما قائلة:

- يوم أمس راسلت الأستاذ يوسف، وعندما سألته عنِ السبب في عدم الردّ عليَّ طوال تلك الأيام، قال: اسألي جلالًا وهو من سيجيبك!

ضحك جلال وهو يشعر بالزهو والنصر قائلًا:

- ألم أخبركِ سابقًا بأنّه لن يردّ عليكِ بهذه السهولة!

- نعم صحيح، لكنّك لم تذكر لي السبب!

- السبب واضح يا لجين، إنّه لا يحبّذ الاختلاط بالنساء حتى لو كان ذلك عبر مواقع التواصل.

قالت لجين وقد قرّرت مشاركتهما طعام الإفطار بينما كانت فضة تسكب لها الشاي في كوب زهريٍّ جميل:

- حسنٌ يا أستاذ جلال، هل لك أن تتفضّل على جاهلةٍ مثلي بالتوضيح أكثر؟!

ارتشف جلال قليلاً من الماء ثمّ مسح فمه بمنديلٍ واعتدل بجلسته بعد أن فرح بكلمة أستاذ وهو يتخيّل نفسه يوسف الملائكيّ قائلًا:

- اسمعي يا لجين..

ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وآله: «ما خلا رجل بامرأةٍ إلّا وكان الشيطان ثالثهما» وكلّنا يعلم بأنّ الحديث بين الجنسين بمفردهما في غرف الدردشة على مواقع التواصل يُعتبر من مصاديق الخلوة..

ولتعلمي أيضًا يا أخيّتي بأنّ الشيطان لا يأتي إلى المؤمن مرّةً واحدةً ويوقعه في الخطيئة والعياذ بالله بل يكون ذلك على شكل خطوات..

واليوم تعتبر النقاشات الدينيّة التي تحدث بين الجنسين عن طريق الرسائل الخاصّة من أولى خطوات الشيطان، حيث سيعجب أحد الطرفين بثقافة الآخر، وسيزيّن الشيطان لهما عملهما على أساس أنّه في مرضاة الله تعالى ولأجل التزوّد من العلوم والمعارف الإلهية، وهما لا يعلمانِ بأنّهما قد حقّقا أولى الخطوات؛ ليقوم إبليس بعدها بالخطوات اللاحقة، ومنها الوصول إلى مرحلة التعرّف على بعضهما أكثر، والتحدّث بالأمور العامّة، ثمّ المشاكل الخاصّة وبثّ الهموم لبعض، ثمّ مصارحة كلا الطرفين للآخر!

سحبت لجين منديلًا؛ لتمسح فمها بعد أنِ انتهت من الإفطار وهي تقول:

- الآن اسمعني أنت يا أستاذ جلال..

غصّت فضة بضحكتها، فانتبه إليها جلال ورمقها بنظرةٍ حادّةٍ وهو يقول بامتعاض:

- وأنتِ على ماذا تضحكين يا سيّدة؟! ألَا يليق بزوجكِ أن يكون أستاذًا؟! هل ترين أنّ يوسف أفضل منّي مثلًا؟!

قالت فضة وعلامات الضحك ما زالت مسيطرة على تعابير وجهها:

- لا طبعًا، لكنّي أراك قد صدَّقت دورك كأستاذ بل وحتى أختي المسكينة قد صدَّقت ذلك!!

قال ساخرًا:

- أختكِ المسكينة؟! لكنّي لا أراها كذلك على الإطلاق، لو أنّكِ انتظرتِ ولم تقاطعيها بضحكتكِ هذه لسمعتِ ردّها القاصم!

التفت صوب لجين وهو يقول:

- والآن، ماذا أردتِ القول بعد عبارة (اسمعني أنت يا أستاذ جلال)؟!

قالها بمزيد من الفخر والاعتزاز وهو ينظر بتشفٍّ لزوجته التي قرّرت أن تكتم ضحكتها هذه المرّة وتنتظر نهاية المطاف لهذا النقاش..

أجابت لجين:

- أردت القول بأنّي لا أوقن بأيّ حديث لا عن رسول الله ولا عن أهل بيته؛ لأنّه قد يكون غير صحيح النقل!

التفت صوب زوجته وكانت نظراته تقول لها: أهذهِ مسكينة؟!

اومأت إليه فضة برأسها وهي تتوسّل إليه بنظرة ترجمها جلال في باله وكأنّها تقول له: اجعل صدرك متّسِعًا لها وأكملِ النقاش معها، أرجوك يا جلال!

أردفت لجين:

ـ لذلك أريد أدلّة من القرآن الكريم فقط.

قال وهو يحتسي كوبًا من الماء البارد بعد أن شعر بأنّ غليله يحترق من هذه المخلوقة التي تشكّك بكلّ شيء، قال أخيرًا:

ـ لقد ورد هذا المعنى ثلاثَ مرّاتٍ في القرآن الكريم وفي كلّ مرّة من هذه المرّات نقرأ قوله تعالى:

«وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ».

(10)

بدأتِ السنة الدراسية في الجامعة، وكانت هذه السنة هي الأولى للجين التي كانت مستبشرةً خيرًا من دخول هذا الصرح الكبير..

لم يمضِ سوى شهر حتى أعلنت فيه خلية الأزمة ضرورة إيقاف الدوام الحضوري وجعلهُ إلكترونيًا؛ بسبب انتشار الوباء أكثر من ذي قبل!

لم يرقِ الأمر كثيرًا للجين وخاصّة أنّها كانت تجد في جوِّ الجامعة متنفّسًا لها؛ لتنسى آلامها وأحزانها بعد فقد والدتها المرحومة وأخيها الشهيد عبّاس..

تعلّق قلبها خلال هذا الشهر بإحدى الفتيات الخلوقات والمهذّبات وكان اسمها (شعاع الزهراء).

في البداية جذبها اسم هذه الفتاة عندما ناداها الأستاذ داخل القاعة، ثمّ جذبها حجاب تلك الفتاة والتزامها، فقرّرت أن تعرض عليها صداقتها بعد أنِ انفتحت أساريرها لها.

قالت لها وهي تقترب منها لأوّل مرّة:

- السّلام عليكم شعاع..

- وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته، أهلًا بك.

- اسمي لجين..

- عاشتِ الأسماء أُخيّة، ما أجمله من اسم!

أظنّه من أسماء حجر (الفضة) المُبارك، صحيح؟

ابتسمت لجين وهي تقول:

- نعم صحيح، لكنّه ليس أجمل من اسمكِ.

صراحةً، بعد سماعي للاسم في القاعة، صار لدي فضول أن أرى صاحبته..

- وماذا وجدتِ؟

- وجدتكِ اسمًا على مسمّى، فأنتِ بهيبتكِ والتزامكِ كأنّكِ خيط نور من شعاع الزهراء فعلًا!

دمعت عينا شعاع وهي تردّد:

سلام الله عليكِ يا مولاتي، وأين الثرى من الثريا يا لجين؟!

ثمّ أكملت وهي تمسك بيد لجين لأوّل مرّة:

- لا تخدعكِ المظاهر ولا الأسماء أخيّتي العزيزة، فكم من متلبّس بزيّ الملائكة وقلبه قلب شيطان!

وكم من شخص يحمل اسمًا مقدّسًا لنبيٍّ أو معصومٍ وفعله فِعل عمر بن سعد ويزيد بن معاوية!!

يجب أن نبحث عن جوهر الإنسان بالإضافة إلى صلاح المظهر، فالذي يرتدي زيّ الصالحين عليه أن يكون منهم قولًا وفعلًا لا أن يقلّدهم فقط لعلّه يكسب سمعتهم أو أن يحبّهم فقط لعلّه ينال إعجابهم وشفاعتهم، حاله حال ذلك الشاعر الذي يقول:

أحبّ الصالحين ولستُ منهم

لعلّي أن أنال بهم شفاعه

وأكره مَن تجارته المعاصي

وإن كنّا سواءً في البضاعة

(11)

بعد تحوّل الدراسة رسميًّا إلى النظام الإلكتروني (تقنية الدراسة عن بُعد) بقت لجين على تواصلٍ مع شعاع عن طريق الرسائل الإلكترونية لعلّها تقتبس من أشعة تديُّنها وقربها من الله، فلقد شعرت بأنّ هذه الفتاة مُرسلة من الله تعالى إليها تحديدًا.

لذلك قلّتِ الأسئلة على يوسف في هذه الفترة بعد أن كانت لجين تقضي وقتها بمراسلة شعاع فتجد عندها إجابة شافية عن كلّ سؤال يخالجها.

لم تعد تصله رسالة منها إلّا ما ندر، وبعد أن كانت تراسله يوميًا صارتِ الرسائل الآن تصله منها بشكل أسبوعي وبعض الأحيان قد يمرّ أسبوعانِ على آخر مراسلة لهما.

كان الحزن يسري في صدره دون إرادةٍ منه، يتصفّحُ هاتفه بين لحظةٍ وأخرى وهو يشعر بأنّ نقصًا ما قد حصل في حياته!

التوتّر والقلق من عدم تواصلها كالسابق جعله يبغض الوضع الذي هو فيه، خاصّةً أنّه يخجل من سؤالها عن كلّ هذا التأخّر في الإرسال، هل من المعقول أنّها توصّلت إلى إجابات عن كلّ أسئلتها؟!

قال في نفسه:

- سأنتظر جلسة هذا الأسبوع لعلّها تأتي وتتكلّم معي كأوّل مرّة تحدّثنا فيها.

هنا، توقّف برهة، ضرب بكلتا يديه على رأسه وهو يردّد بألم:

ما الذي فعلته بنفسك يا يوسف؟ لماذا تعلّقت بهذه المخلوقة إلى هذه الدرجة؟!

سجد لله باكيًا شاكيًا:

إلهي، ما الذي جنيته أنا على نفسي حتى عاقبتني بهذه العقوبة؟!

إلهي، لم أنظر إليها في أوّل مرّة عن قصد، أقسم بك يا ربّ أنّني ما تعمّدت ذلك!

هل لأجل تلك النظرة عاقبتني؟ ومن ساحة طاعتك ورحمتك طردتني؟!

رفع رأسه من السجود وحشر وجهه بين كفّيه وهو يجهش باكيًا ويردّد:

آهٍ آه، ما ذلك الذنب الذي ارتكبته لِيبتلِيَني الله بكِ يا لجين!

هدأ قليلاً ثمّ صار يعيد ذاكرته إلى ما قبل قدوم لجين إليه، تذكّر أنّه منذ مجالس الدّعاء الأولى التي صار يعقدها في منزلهم مع أصحابه، كان هناك صوت يتردّد إلى نفسه، صوت لمخلوق خفيّ، قد يكون الشيطان!!

وقد تكون النفس الأمّارة بالسّوء، فلا يوجد فرق كبير بينهما، إذ إنّ النفس جند من جنود الشيطان!

صار يضغط بأصابعه على رأسه وكأنّه يعصر مركز (الذاكرة) في دماغه، لعلّه يعيد لها ما كان يقوله ذلك الصوت!!

صرخ فجأة: نعم، تذكّرت!

"يوسف، انظر إلى كلّ هؤلاء الرجال.. جميعهم ينصتون إليك باهتمامٍ بالغ، وكأنّ على رؤوسهم الطير!!"

نعم هذا ما سمعته من ذلك الصوت ولأكثر من مرّة! وأتذكّر أنّني فرحت حينها وشعرت بالزهو والخيلاء..

قام من مكانه فزعًا وهو يردّد: العُجب، العُجب، لقد عرفت الذنب بل لم يكن ذنبًا، فالذنب أفضل منه!!

ثم صار يستذكّر حديث رسول الله صلّى الله عليه وآله:

«إنّ الله علمَ أنّ الذنب خير للمؤمن من العُجب، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمنًا بذنبٍ أبدا».

نعم، لقدِ ابتلاني الله بهذه الفتاة حتى يُبعِد عنّي العُجب!!

بل أنا من جلبت الذنب إلى نفسي بعد أن فرحت بوضعي الجديد ونسيت أنّ الفضل لله وحده!

لقد رفع الله عنّي التوفيق حتى لا أردّد مرّة أخرى بأنّي ملتزم بكلّ أوامر الله ولا ذنب عندي على الإطلاق!!

ألم أكن أردّد هذا دائمًا عندما يطاردني شبح الموت حتى أقنع نفسي بأنّي قريبٌ من الله وسيكون موتي سهلًا يسيرا؟! إذن أنا منذ البداية مبتلًى بالعُجب لكنّه كان مخفيّا عنّي وغائرًا بين طيّات نفسي فلم أستطع تمييزه، وبعد تلك الجلسات قد خرج إلى ساحة قلبي الظاهرية وسمعت ذبذبات صوته الشيطاني!

هنا، فتح هاتفه وذهب إلى قائمة جهات الاتّصال؛ ليختار اسم الشيخ رضا أستاذ الأخلاق

جاءه ذلك الصوت الهادئ الوقور:

- السّلام عليكم، أهلاً بولدنا يوسف الملائكي...

قاطعه يوسف بصوتٍ يقطر حزنًا:

- لم أعد كذلك يا أستاذ!!

- ولكن ما الذي أسمعه منك يا ولدي؟!

- أستاذ رضا، هل لي أن أراك؟

- بالتأكيد، سأكون في انتظارك إن شاء الله تعالى.

- إذن سأزورك اليوم بعد صلاة العشاء، إن وفّقني الله لذلك.

(12)

في بيت الشيخ رضا كان يوسف جالسًا، مطأطِئ الرأس، يفرقع أصابع يده بتوتّر!

دخل الشيخ وألقى التحيّة، فانتبه يوسف لينهض بسرعة كمن فاجأهُ أمر طارئ!

مدَّ يوسف يده لأستاذه الذي سحبه نحو حضنه بهدوءٍ وهو يقول:

- أيّ قلقٍ هذا الذي تعيشه يا يوسف؟!!

وبعد أن جلسا على الأرض واحدًا مُقابل الآخر كما يحلو لهما دائمًا، أجاب يوسف:

- إنّها النفس يا أستاذ!!

وقبل أن يتكلّم الأستاذ، عاد يوسف ليقول:

- بل هو الشيطان.. بل.. بل كلاهما!!

أتذكُر يا أستاذ عندما كنتُ أقول لك بأنّي لا أميّز بين النفس والروح؟ الآن علمت بأنّ النفس جند من جنود الشيطان، أمّا الروح فهي من جنود الله تعالى.

هزَّ الأستاذ رأسه بالإيجاب وهو يردّد قوله تعالى:

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

ثمّ أردف:

- والآن، أخبرني ما وسيلة النفس والشيطان التي استخدماها في تدميرك وتحطيمك بهذا الشكل؟!

قال يوسف مطأطِئًا رأسه خجلًا:

- ثلاث وسائل وليست واحدة يا أستاذ!

- هاتِها...

- العُجب ثمّ النظرة المحرّمة ثمّ الهوى!!

اتّسعت عينا الأستاذ وهو يتساءل:

- الثلاثة معًا؟!

- لا...

في البداية العُجب، بعدها بأيّام النظرة المحرّمة، بعدها بأيّام اكتشفت بأنّي أهوى تلك الفتاة التي رمقتها بتلك النظرة!!

حاول الشيخ رضا أن يُهدِّئ من روع يوسف قائلًا:

- اهدأ وحدّثني بالذي جرى..

لم يعرف يوسف من أين يبدأ، فأجهش باكيًا وهو يقول:

أستاذ، لم أرَها إلّا مرّة واحدة، صدّقني! كانت ترتدي الكمّامة ثمّ أنزلتها من وجهها؛ لتمسح دموعها فرفعتُ رأسي متعجّبًا من تأثّرها وحزنها!

أستاذي، لم تكن نظرتي عن عمد، ألم يقل رسول الله: «النظرة الأولى لك والثانية عليك»؟! فلماذا عاقبني الله وأبقى تلك الملامح في بالي ومخيّلتي؟

أجابه الأستاذ وهو يشعر بأنّ هناك أمورًا أخرى قد حدثت بعد تلك النظرة وهي مَن جعلت يوسفَ يفكّر كثيرًا بأمر تلك الفتاة:

- اترك أمر النظرة الآن وحدّثني عن العُجب، ألست أنت من كان يُشبِع الدرس أمثلةً وقصصًا وعِبرًا كلّما تحدّثنا عن تلك الصفة الذميمة والمُهلكة؟!

- بلى يا أستاذ، لكن لا تنسَ بأنّي كنتُ أخشى هذه الصفة كثيرًا؛ لذلك تعمّقت في دراستها؛ بسبب ما أعانيه من مديح الناس لي، وبالخصوص أهلي وأصدقائي!!

أطلق الشيخ رضا حسرةً طويلةً وهو يقول:

المدح، المدح، والله لو يعلم الناس ما يفعله المدح بالمؤمنين لَمَا مدحوهم أبدًا، فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله: إياكم والمدح فإنه الذبح.

وعن الإمام علي عليه السلام قال: حب الاطراء والمدح من أوثق فرص الشيطان.

- وماذا نفعل يا أستاذ عندما يمدحنا الغير؟!

- لقد جاء عن الإمام علي عليه السلام لمَّا مدحه قوم في وجهه: اللهم إنك أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلنا خيرًا مما يظنون، واغفر لنا ما لا يعلمون .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا أُثنيَ عليك في وجهك فقل: اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

- وهل هناك ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في المدح والثناء غير هذا؟!

- نعم يا ولدي فلقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: من مدحك فقد ذبحك!

وعنه عليه السلام: أيها الناس! اعلموا أنه ليس بعاقل من انزعج من قول الزور فيه، ولا بحكيم من رضي بثناء الجاهل عليه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: لا تغتر بقول الجاهل ولا بمدحه فتكبر وتجبر وتعجب بعملك، فإن أفضل العمل العبادة والتواضع.

وعن الإمام علي عليه السلام: أجهل الناس المغتر بقول مادح متملق، يحسن له القبيح، ويبغض إليه النصيح.

وعنه عليه السلام: كم من مغرور بحسن القول فيه، كم من مفتون بالثناء عليه!

وكذلك عن الإمام علي عليه السلام: إذا مدحت فاختصر، إذا ذممت فاقتصر.

وعن الصادق عليه السلام: لا يصير العبد عبدًا خالصًا لله عز وجل حتى يصير المدح والذم عنده سواء، لأن الممدوح عند الله عز وجل لا يصير مذمومًا بذمهم، وكذلك المذموم، فلا تفرح بمدح أحد، فإنه لا يزيد في منزلتك عند الله، ولا يغنيك عن المحكوم لك والمقدور عليك، ولا تحزن أيضًا بذمِّ أحد فإنه لا ينقص عنك به ذرة.

- وهلِ المدح مذموم في كلّ نواحيه؟ ألَا يُعدُّ طاقة تحفيزية من أجل النجاح والتفوّق في أمور الحياة؟

- أنت قلتها يا يوسف، في أمور الحياة..

فهو يُعدُّ طاقة سلبية في أمور الدّين وفي رحلة السعي إلى الله تعالى.

- ولماذا؟

- لأنّ الشيطان وجنوده وأوّلهم النفس الأمّارة سيتّخذون من هذا المديح سُلّمًا يصعدون به إلى قلب ذلك المؤمن فيملأونَه عُجبًا؛ ليُردوه بعد ذلك أسفل السافلين!

- لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم

- أحسنت يا ولدي، بهذه العبارة التي نطقتها الآن نحارب العُجب كخطوةٍ أولى..

- لكنّي نطقتها بشكلٍ عفوي، فكيف تكون هي الخطوة الأولى في العلاج؟!

- لأنّك بعد أن تشعر بشيءٍ من العُجب في داخلك وبمجرّد أن تردّدها ستكون قدِ اعترفت لله تعالى بكلّ الفضل، وبأنّ القوة الحقيقية لا تكون إلّا منه سبحانه، ونحن لا حول لنا ولا قوة إلّا بحوله هو وقوته هو لا غير..

وهنا قصمت ظهر الشيطان، وكسرت نفسك الأمّارة بهذا الاعتراف، وأوصلت لهما رسالةً مفادها:

على ماذا أفرح؟ وبماذا أفتخر؟ وأنا كلّ ما أملكه من الله تعالى ولا فضل لي به على الإطلاق!!

- زدني جزاك الله خيرًا يا أستاذ، بلِ ابدأ معي من الصفر وكأنّي لا أعرف شيئًا عن العُجب، أسبابه، نتائجه، علاجه.. أحتاج إلى الكثير من التذكير، أرجوك.

- حسنٌ يا ولدي، انتظرني لأجلب لك كتاب (الأخلاق في الأربعونَ حديثًا) وهو مختصر لما أورده السيّد روح الله الخميني (قدّس سرّه) في كتابه الرائع (الأربعونَ حديثًا).

- حسنٌ يا أستاذ، اجلبه وأنا في انتظارك.

قام الشيخ رضا من مكانه لجلب الكتاب، وبقي يوسف سارحًا مع أفكاره وتساؤلاته حتى عاد الأستاذ وهو يحمل الكتاب، ثمّ فتحه وصار يبحث عن باب العُجب، وعندما وجده، تحدّث قائلًا:

- اسمع يا ولدي:

العُجب كما عرّفه العلماء: هو تعظيم العمل الصالح واستكثاره والسرور والابتهاج به، واعتبار الإنسان نفسه غير مُقصّر.

قال تعالى:

«أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ».

وإنّ للعُجب مراتبَ وهي كالتالي: (وهنا التفت الشيخ صوب يوسف وهو يقول: انتبه لكلّ كلمةٍ في هذه المراتب؛ لتعرفَ أيّ مرتبةٍ منها تمثّل حالتك؟ حتى نقوم بمعالجتها بإذن الله تعالى)

المرتبة الأولى:

وهي أشدّ المراتب وأهلكها، حيث يكون العُجب في قلب الإنسان شديدًا إلى درجة أنّه يمنُّ بإيمانه وصفاته الحميدة على وليّ نعمته ومالك الملوك الله جلّ وعلا..

فيتخيّل أنّ الساحة الإلهية قدِ اتسعت بسبب إيمانه أو أنّ الدّين اكتسب رونقًا بذلك وأنّه بإرشاده وهدايته للناس أو بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإقامة الحدود أو بمحرابه ومنبره قد أضفى على دين الله بهاءً جديدًا..

أو أنّه بحضور صلاة جماعة المسلمين وإقامة مجالس العزاء لسيّد الشهداء عليه السّلام قد أضفى على الدّين جلالًا!! لذلك يمنُّ على الله عزّ وجلّ، وعلى رسول الله صلّى الله عليه وآله، وعلى سيّد الشهداء عليه السّلام وإن كان لا يظهر هذه الحالة وإنّما يبطنها في قلبه.

وتتبع هذه الحالة المنّة على عباد الله في الأمور الدينيّة كالذي يمنُّ على الضعفاء والفقراء بإعطائهم الصدقات الواجبة والمستحبّة ومساعدتهم، وأحيانًا تكون هذه المنّة خافية حتى على الإنسان نفسه!

صمت الشيخ رضا؛ ليرى تأثير كلماته على يوسف، فرآه سارح الفكر، دامع العين، كمن حمل هموم الدُّنيا على ظهره، فقال له:

- هل لديك سؤال يا ولدي؟ أم أنتقل إلى المرتبة الثانية؟!

- نعم يا أستاذ، كيف تكون هذه المنّة أحيانًا خافية على الإنسان نفسه؟ صراحةً، لم أفهمِ المقصود!!

- نعم يا ولدي، بعض هذه المراتب واضحة ويمكن للإنسان الاطّلاع عليها بأقلّ تنبيه والتفات، وبعضها الآخر دقيق للغاية ومنها هذه المرتبة، حيث يكون الشعور فيها خفيًّا لا يستطيع الإنسان أن يدركه ما لم يفتّش ويدقّق بصورةٍ صحيحة.

- حسنٌ يا أستاذ، أكمل بقيّة المراتب، جزاك ربّي خيرا.

- المرتبة الثانية:

يرى صاحب هذا المقام نفسه محبوبًا عند الله تعالى، ويرى نفسه في سلك المقرّبينَ والسابقينَ إلى دين الله، وإذا ذُكِر أولياءُ الله والمحبّونَ والمجذوبونَ إليه، اعتقد ذلك الإنسانُ أنّه منهم!

المرتبة الثالثة:

أن يرى العبد بأنّ الله تعالى مدينًا له وأنّه بذلك يكون مستحقًّا للثواب الأخروي حتى وإن عامله الله بعدله يوم الحساب! بل ويرى واجبًا على الله تعالى أن يجعله عزيزًا في الدنيا ومن أصحاب المقامات في الآخرة..

وإذا أصابه بلاء وصادفه ما لا يرغب، فإنّه يعترض على الله في قلبه، ويتعجّب من ابتلاء المؤمن ورزق المنافق، ويغضب في باطنه على الله وعلى تقديره للأمور، ولكنّه يُظهر الرضا في الظاهر، ويسلّي نفسه عندما يسمع أنّ المؤمن مبتلًى وهو غافل عن أنّ الكثير من المنافقينَ يصيبهم البلاء أيضًا، وليس كلّ مُبتلٍ مؤمنا!

المرتبة الرابعة:

أن يرى الإنسان نفسه متميّزًا عن سائر الناس، فهو أفضل من العاديين بالإيمان، وأفضل من المؤمنين بكمال الإيمان، ويرى سائر الخلق ناقصين، وينظر إليهم بعين الاحتقار ويطعن بهم في قلبه أو لسانه، ويعيبهم ويُبعد كلًّا منهم بصورةٍ ما عن ساحة رحمة الله، ويجعل الرحمة خالصة له ولأمثاله!

(13)

قال يوسف:

- عرفتُ الآن لماذا يبتلي الله عبده المؤمن بالذنوب بشكلٍ مستمرّ رغم أنّه يعلم بأنّ ذلك العبد سيجتاز هذا الذنب لاحقًا، وسينتبه إلى نفسه ويندم فيعلن توبته؛ ليتطهّر من ذلك الذنب، كلّ هذا لأجل ألّا يصيبَه العُجب من كثرة الطاعة وقلّة المعصية!

- أحسنت يا ولدي، ويجب ألّا يصيب الإنسان اليأس من نفسه لشدّة الابتلاءات والفتن التي يتعرّض لها، ففي ظاهرها العذاب والنقمة، وفي باطنها المغفرة والرحمة، وبالإضافة إلى ما تعرّضنا له من مسألة العُجب، فإنّ هناك التفاتة كبيرة قلّما ننتبه لها عند قراءتنا لكتاب الله تعالى، وذلك حينما يقول سبحانه:

«إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا».

فعندما يجتنب الإنسان ما يُعرض عليه من معصية، فهو بذلك قدِ استوجب غفران جميع سيّئاته الماضية!

قال يوسف بدهشة:

- سبحان الله! وكأنّي لم أسمع بهذه الآية من قبل رغم أنّي ختمت القرآن الكريم مرارًا وتَكرارًا!!

ضحك الشيخ رضا وهو يقول:

- نعم يا يوسف، وهذه من معجزات القرآن الكريم أنّه كتاب مُتجدّد، فكلّما ظننت أنّك سيطرت على جميع مطالبه، ظهرت لك آية وكأنّك لم تقرأها من قبل!

أنا أجزم بأنّك قرأتها يا ولدي، ومررت عليها كثيرًا، ولكنّك لم تقرأها بعين القلب؛ لذلك لم تستقرّ في داخلك، أو أنّك قرأتها دون أن تفهم معناها ودون أن تتأنّى في كلّ كلمةٍ فيها.

أعاد يوسف قراءة تلك الآية الكريمة ثمّ نزلت دمعة من عينه قال على إثرها:

أيّ رحمةٍ تلك يا الله؟ تبتلينا بالذنوب لعلّنا نتجنّبها، فلا تعطينا ثواب تلك الطاعة فحسب بل تذهب إلى سيّئاتنا الماضية؛ لتمحوها من صحائف أعمالنا! وكأنّك تبحث عن أيّ حجّة أو ذريعة؛ لتمحوَ بها ذنوب عبادك المؤمنين، لكنّنا ما زلنا نعصيك بكلّ وقاحة رغم ما تحمله إلينا من مشاعر تفوق ما تحمله الأمّ من مشاعر لوليدها!!

تحدّث الشيخ رضا وهو يختم جلستهما هذه بالقول:

أدعوك يا ولدي أن تتأنّى في قراءتك للقرآن الكريم، وأن تتدبّر في كلّ آيةٍ منه، وألّا يكون همّك فقط كم صفحةً قرأت، وكم جزءًا حفظت، وكم ختمةً أنهيت.

كتاب الله تعالى مظلوم بيننا حتى وإن لم نكن هاجرين لقراءته، فلقد هجرنا تدبّر آياته، وهجرنا الاهتمام برسائل الله الكثيرة التي وردت فيه، وصرنا نهتمّ بفهم وتدبّر غيره من الكتب الدينيّة والعلميّة في حين أنّه أهمّ وأرقى كتاب دينيّ وعلميّ على الإطلاق.

عاد يوسف إلى منزله وهو يفكّر بكلام أستاذه الشيخ رضا، اتّجه نحو كتاب (الأربعونَ حديثًا) فلقد شوّقه الأستاذ من خلال محاضرة اليوم لإعادة قراءة هذه الموسوعة الأخلاقية التي كانت لها بالغ الأثر في تهذيب أخلاقه في بداية مسيرة الإلتزام الديني.

تذكّر أنّ في هذا الكتاب شيئًا عن كيفية السيطرة على خيال الإنسان حتى لا يأخذه إلى التفكير بالحرام والعياذ بالله..

أخذ يتصفّحُ الكتابَ إلى أنِ استقرّت أنامله عند تلك الالتفاتة المنشودة، فأخذ يقرأ:

"الخيال هو كالطائر الذي يطير يمينًا ويسارًا وينتقل من شجرة إلى أخرى، وهو قادر على دفع الإنسان نحو الشقاء والفساد، وهو وسيلة من وسائل الشيطان التي يتسلّط من خلالها على الإنسان فيكبّله بواسطة الخيال ويدفع به نحو الشقاء.

والإنسان المجاهد الذي نهض لتهذيب نفسه وإصلاحها، عليه أن يمسك بهذا الطائر ويسيطر عليه ولا يسمح له بالطيران إلى أيّ موطن يريد، بل عليه أن يمنعه من التحليق في الخيالاتِ الفاسدة والباطلة والمعاصي والشيطنة وأن يوجّه خياله دائمًا نحو الأمور الشريفة."

أغلق الكتاب وأغمض عينيه بعد أنِ استلقى على السرير وصار يستحضر كلام الأستاذ رضا وهو يحثّه على قراءة القرآن الكريم بتأنٍّ وتدبّر..

قال في نفسه: وأيّ كتاب أفضل من كتاب الله تعالى حتى أوجّه خيالي نحوه؛ لأتخلّص من خيالات الشيطان الرجيم؟!

قام من مكانه وتوضّأ، ثمّ أخذ القرآن الكريم بعد أن فرش سجّادته وجلس ليقرأ بعين القلب هذه المرّة بعد أن توكّل على الله تعالى وطلبَ العون من إمام الزّمان عليه السّلام..

شعر بأنّ قراءته هذه المرّة قدِ اختلفت فعلاً!! فهو يتمنّى أن يقف عند كلّ آية في القرآن الكريم؛ ليبحر في معانيها، كان قد وصل إلى قصّة نبي الله سليمان عليه السّلام مع النملة..

«حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا...»

قال يوسف في نفسه: سبحان الله!

تكلّمت نملة، فتبسّم نبيٌّ من كلامها، فنقلَ الله لنا خبر تلك الابتسامة!! أين نحن من كلّ هذا اللُّطف وهذا التواضع وهذه الأخلاق السامية؟!!

خالق الكون يتكلّم لعباده عن سبب ابتسامة أحد أنبيائه!

ومَن نحن يا الله حتى تتفضّل علينا بهكذا التفاتة؟! وأيّ درس تريد أن توصله لنا بهذه الأخلاق المتواضعة؟! هل تريد أن تخبرنا بأنَّ المؤمن يجب أن يكون كخالقهِ لا يأنف من التحدّث إلى الخلق مهما كان قدرهم وشأنهم؟

ثمّ استمرّ بالقراءة، وفي كلّ مرّة يقف ليتأمّل لطف الله ورسائله لعباده حتى وصل إلى قصّة نبيّ الله شعيب عليه السّلام ولقائه بموسى ذلك الشابّ الغريب الوحيد..

«قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ۖ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ»

تكلّم مع نفسه:

نبيٌّ مثل شعيب عليه السّلام بكبر سنّه ومقامه الرفيع عند الله وملائكته يَعِد شابًّا غريبًا بأنّه سيكون صَالِحًا في التعامل معه!

أنت نبيٌّ الله يا شعيب، أخبر موسى بأنّك نبيٌّ وكفى! لماذا تقول له بأنّك ستكون صَالِحًا معه؟ أوَيوجد نبيٌّ غير صالح؟!

ما هذا التواضع؟ ما هذا اللُّطف؟ ما هذه الأخلاق؟!

لماذا لا نتعلّم منكم كلّ هذه الدروس؟ لماذا ما زلنا نرى أنفسنا عارفين بالله ومتفضّلين عليه وعلى عباده؟!!

(15)

في الجامعة، وعبر مواقع التواصل، كانتِ الأحاديث العميقة والمشوّقة تجمع كلًّا من لجين وشعاع، وكانتِ الأخيرة ترفد زميلتها الجديدة بالكثير من المعلومات الدينيّة القيّمة بينما كانت لجين لا تشبع من الأسئلة والاستفسار عن العلاقة بين العبد وربّه وعن حجاب المرأة وسترها..

قالت مرّة:

- أتساءل يا شعاع كثيرًا في نفسي عنِ الحجاب، وهل هو فعلًا واجب على المرأة؟ وهل هناك دليل واضح من القرآن الكريم على وجوبه أم مجرّد أحاديث وروايات ليس لها جذور في القرآن الكريم أو الكتب والأديان السماوية الأخرى؟!

أجابتها شعاع برحابة صدر:

- لنأخذ نقطة نقطة ونناقشها على مهل يا حبيبتي..

في البدء، الحجاب ليس واجبًا على المرأة فحسب كما تظنّين بل هو واجبٌ على الرجل أيضًا..

اتّسعت حدقتا لجين وهي تنظر باستغراب إلى صديقتها قائلة:

- بالله عليكِ، ما هذا الكلام؟!

ضحكت شعاع وهي تحاول فكّ الالتباس الذي حصل لصديقتها بالقول:

- لا أقصد هذا الحجاب الذي نرتديه أنا وأنتِ وبقيّة المحجّبات يا عزيزتي بل أنّ حجاب الرجل يختلف عن حجاب المرأة من جهة ويتشابه معه من جهة أخرى..

فأمّا التشابه فهو مأمور بغضّ البصر عن المرأة وأن يكون لعينيه حجاب معنويٌّ يصدُّه عنِ النظر الحرام، والمرأة في هذه النقطة مأمورة أيضًا بالالتزام بهذا الشكل من أشكال الحجاب المعنويّ بأن تغضّ بصرها عن الرجل ولكنّها تزيد عليه حجابًا ماديًّا آخرَ وهو حجب مفاتنها وزينتها عن الرجل..

انظري إلى قوله تعالى:

«قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»

هذا هو حجاب الرجل الذي عليه الالتزام به (غضّ البصر وحفظ الفرج من الزنا والعياذ بالله).

- وحجاب المرأة؟!

- حجاب المرأة يتمثّل في قوله تعالى:

«وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»

- ولكن، أكلُّ هذا من أجل حجب المرأة نفسها عن الرجل؟!

- بل من أجل حجب (زينة المرأة ومفاتنها) عن الرجل، وليس حجب المرأة بالكامل!!

ففي الحقيقة يا لجين، الآية الكريمة لم تزد على سابقتها إلّا في مسألة عدم إبداء الزينة «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ» ثمّ باقي الكلام كلُّه توضيح وشرح لهذه النقطة.

فالمرأة تشابه الرجل في مسألة غضّ البصر وحفظ الفرج من الزنا، وتزيد عليه في مسألة عدم إبداء الزينة..

- ولكن، لماذا لم يتساويا في الحجاب؟ أوليس الله عادلًا لا يظلم أحدا؟! لماذا نرى في مسألة الحجاب وكأنّ هناك ظلم للمرأة؟!

- ولكن أين الظلم بربّك يا لجين؟!

- لماذا لم يأمره هو أيضًا بإخفاء زينته ومفاتنه؟!

ضحكت شعاع وهي تتساءل بدهشة:

- ولكن هل مفاتن الرجل هي نفسها مفاتن المرأة؟ هل للرجل جاذبية وفرص للتزيُّنِ كتلك التي في المرأة؟ هل نضحك على عقولنا أم ماذا يا أختاه؟!!

خجلت لجين من سؤالها لكنّها كانت مُصِرَّةً أن تستمرّ في طرح الأسئلة حتى النهاية.

توقّفت شعاع عنِ الضحك وهي ترى علامات الحَيرة والتيه على صديقتها، فقالت:

- لقد جعل الله الأنوثة ومباهج اللَّطافة بل منابع الإثارة في المرأة دون الرجل، ولا أحد يمكنه أن يُنكر ذلك، فهي حقيقة واضحة للجميع من الناحية الخَلقية.

ولا شكّ أنّ الإثارة والجمال واللَّطافة ضرورة حياتية بل هي الركن الأساس في استمرارية الوجود البشري، فبدون لطافة الأنثى ورجولة الذكر لا وجود للبشرية ولا إمكانية للتكاثر بينهما على الإطلاق.

فالأنثى هي أكبر وأسهل وسيلة لإغواء الشيطان للرجل من خلالها، وإنّ الله سبحانه وتعالى حيث أودع فيها من الصفات التي تجذب الرجل إلى الاستمتاع بها حلالًا، فالشيطان يغوي الرجل؛ ليقدم على الاستمتاع بها حرامًا، أي يرتكب المعصية، ويخرج عن طاعة ربّه، ويدخل في طاعة الشيطان الذي يريد غواية البشر بأيّ طريقة «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ»

ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بالحجاب؛ لكي يسدّ الطرق الموصلة إلى غواية الشيطان، فالحجاب للرجل والمرأة، ولكنّه للرجل بنحوٍ وللمرأة بنحوٍ آخر بحكم اختلاف طبيعة الخِلقة بينهما.

- ولكن، أَلَا يمكن أن يتحقّق الحجاب بأمور أخرى غير ما فرضه الله على المرأة من شروط قاسية في الحجاب؟!

- لا أدري ماذا تقصدين بالقاسية يا صديقتي؟

فعندما يريد والدكِ مثلًا أن يحفظ لكِ كرامتكِ وإنسانيّتكِ دون أن يحرمكِ من حقّكِ في الحياة، تكون هذه قسوة منه أم رحمة؟!

على العموم، لو عدنا إلى سؤالكِ وفرضنا أنّ هناك أمورًا أخرى يمكن أن تحقّق الحجاب بين المرأة والرجل، فستكون الفرضيات كالتالي:

١- إمّا أن يكون بحجب الرجل عن المرأة تمامًا وعدم تلاقيهما، وهذا منافٍ لمسيرة الحياة التي بُنيت على أكتاف الجنسين.

٢- أو أن يقوم الرجلُ بارتداء الحجاب على عينيه؛ ليقي المرأة من نظراته، وهذا أمر مستحيل مع ترك مفاتن المرأة بارزة، وهو غير متحقّق الوقوع أصلًا، فكيف يُكمل الرجل حياته بلا بصر واضح وسليم وكلّ هذا لأجل أن تسلمَ المرأة من نظراته نحو مفاتنها وجمالها!!

٣- أو أن تكون المرأة هي التي تتحمّل عناء الحجاب _إن كان فيه عناء كبير أصلًا_ فتحجب مفاتنها وزينتها ومكامن الجمال في جسمها عن أعين الرجل دون إعاقةٍ لمسيرة حياتها ودون أيّ تأثير على دخولها معترك الحياة من جميع أبوابه.. كلامي هذا من كلا الجانبين، الجانب العقلي والتطبيقي.

صمتت شعاع الزهراء؛ لترى تأثير كلماتها على صديقتها، أردفت بعد هنيهة:

- والآن يا حبيبتي، أيّ فرضية صالحة للتطبيق برأيكِ؟

- الأخيرة طبعًا..

- وبهذا نعرف بأنّ الحكمة من الحجاب هي حجب نظر الرجل عن جسم المرأة بحيث يصدّ عنِ الوقوع فيما ينافي العفّة لكليهما.

- وهل هذا هو فقط السبب من تشريع الحجاب؟!

- في الحقيقة، إنّ مجمل الآيات الكريمة والروايات الشريفة تشير إلى أنّ فلسفة الحجاب تكمن في:

١- منع الإثارة الجنسية بين الرجل الأجنبي والمرأة.

٢- تنظيم الحياة العامّة بعيدًا عن تحكّم الشهوة وهوى النفس.

٣- تكريم المرأة بحفظ إنسانيّتها وعدم تعامل الآخرين معها على أساس أنوثتها فقط.

٤- حماية المرأة من شرور الرجل المتهور والطائش الذي قد يؤذيها طمعًا بجسدها وجمالها.

- سؤال أخير يا شعاع: ولكن، ألَا يحدّ الحجاب من فرص الزواج؟ فإن لم تظهر مفاتن المرأة للرجل، كيف سينجذب نحوها برأيكِ؟!

- لقد أثبتتِ الدراسات والتجارب بأنّ الحجاب يزيد من جاذبية الرجل نحو المرأة، لكن بالحدود المشروعة، فلا يستطيع التفكير بالحرام أثناء النظر إليها وإنّما سيتمنّى الارتباط بها بالطرائق العقلانية، وعن طريق الزواج الدائِم بعد أن يتأكّد بأنّ قلبه اختار هذه المرأة لأجل روحها العفيفة ولأجل حيائها واحترامها لا لأجل جمال جسمها وشدّة مفاتنها!

وهذا لا ينطبق على المسلمين فحسب يا عزيزتي، فالحجاب والحشمة والحياء من الأمور المحبّبة عند كلّ الأديان والمذاهب، ومنذ آلاف السنوات، لذلك نجد أنّ المرأة المحتشمة في مجتمعها تكون أمنيّة كلّ رجل يريد الارتباط بشكل دائِم وتكوين عائلة وأسرة متماسكة.

ولكي تتأكدي يا غاليتي من أنّ الحجاب لا يختصّ بالمسلمين فحسب ولا يختصّ بعصرٍ أو زمنٍ دون آخر، فإنّني سأجلب لكِ إن شاء الله كتاب (الحجاب بين الحشمة والخصوصية والمقاومة) للكاتبة فدوى الجندي في نفس هذا اليوم من الأسبوع القادم، إن بقي جدولنا الحضوري نفسه.

حاول يوسف أن ينسى أمر لجين لكنّ نار الشوق كانت تزيد ولا تريد الانطفاء أبدًا..

قرّر _وبمساعدة نفس ذلك الصوت الخفيّ_ أن يراسلها بحجّة السؤال عن أحوالها الإيمانية ليس أكثر!!

كتب لها:

- السلام عليكم أختاه، لم تراسلوني منذ فترة طويلة، فهل توصّلتم إلى إجابات عن أسئلتكم في طريق السعي إلى الله؟

استلمت لجين الرسالة، تفاجأت في البداية ثمّ كتبت:

- حيّاك الله أستاذ، الحمد لله، لقد أرسل إليَّ ربّي من يعينني على سلوك هذا الطريق دون مشقّة، فعلًا أنّ العبد وبمجرّد أن ينوي التوجّه إلى الله، فسيسهّل عليه الكثير الكثير..

ضرب يوسف جبينه وهو يردّد:

يا ويلي، سهّل لها الطريق وجعله وعرًا صعبًا عليّ!!

تحدّث مع نفسه وكأنّه يتحدّث مع لجين:

حتمًا أنّه سبحانه رأى فيكِ إخلاصًا وحبًّا حقيقيًّا للوصول إليه، بينما رأى منّي تهاونًا وتباعدًا، إلهي ارحمني.

كتبت بعد أن رأت أن رسالتها مقروءة وهو ما زال ضمن المحادثة لكنّه لا يكتب!!

- أستاذ، هل أنت معي؟!

قال وهو يقرأ رسالتها: ليتني لم أكن معكِ أبدًا، ليتني بقيت مع ربّي ولم أوقع نفسي في هذه التهلكة.

كتب لها: نعم، أنَا معكِ، لكن لديّ سؤال إن أمكن..

- تفضّل يا أستاذ.

- هل ما زلتم تحضرون جلستي الأسبوعية؟!

- نعم، طبعًا.

- وكيف هي؟ هل تستفادونَ منها؟!

- حتمًا أستاذ، جزاك الله خيرا.

- الحمد لله، أستودعكم الله.

- في أمان الله وحفظه.

***

بعد أيّامٍ قليلةٍ من هذه الأحداث، استلمت لجين رسالة من شعاع الزهراء، جاء فيها:

- حبيبتي لجين، يؤسفني إخبارك بأنّي لم أعد باستطاعتي التواصل معكِ كالسابق، إذ إنّ أخي (سندًا) أخذ منّي الهاتف ولم يعد يسمح لي بالدخول إلى الدروس الإلكترونية إلّا من خلال هاتفه هو!!

وعندما نلتقي في الجامعة، سأخبركِ عن السبب، سأحذف المحادثة الآن؛ لأنّي أراسلكِ من هاتفه.

كانت هذه الرسالة بمثابة الصدمة الكبرى للجين التي صارت ترى شعاع الزهراء أختًا وصديقة، والأكثر من هذا أنّها رفيقة دربها للوصول إلى الله!

هل هذه حجّة لتركي في منتصف الطريق؟!

هكذا صارت تردّد مع نفسها وهي تتساءل: كيف تريدني أن أصدّق بأنّ أخاها أخذ منها الهاتف؟!

ألم تخبرني بأنّ أهلها جميعهم من الملتزمين والمثقّفين؟

لماذا تريد لعلاقتنا أن تنتهي إذن؟!

لماذا أرى المتديّنين أنانيين لا يفكّرون بمشاعر الغير؟! لماذا؟!

خرجت من الغرفة لتلتقي عيناها بعينيّ أختها فضة، سألتها الأخيرة:

- ما الذي حصل؟!

- شعاع، قرّرتِ التوقّف عن مراسلتي!

- ما السبب؟!

- حجّة واهية، الظاهر أنّ أسئلتي الكثيرة صارت تصدّع رأسها!!

- لكن، بربّكِ، ما الذي تقولينه؟!

- أنتم هكذا، تدَّعونَ التديُّن، لكن لا تحملون أخلاق الدين!

وقبل أن تجيب فضة، أردفت لجين قائلة:

ألم يفعلها يوسف قبلها؟! ألم يكن في حالة تجاهل لرسائلي إلى أن عرف بأنّي من أقرباء صديقه؟! هل هذه أخلاق الملتزمين بدين الله؟!

- لكن يا لجين، يوسف كانت له أسبابه!

- أيّ أسباب؟ الشيطان!!

لتعلمي إذن بأنّه عاود مراسلتي والسؤال عنّي وعن أحوالي بعد أن قطعتُ رسائلي عنه لفترة..

لماذا لم يخف حينها من الشيطان؟! ألَا ترين بأنّها كانت مجرّد حجج واهية؟!

لم تعرف فضة بماذا تردّ على أختها المصدومة للتوّ..

انتظرت جلالًا ليعود من عمله فتخبره بكلّ ما جرى مع لجين، قرّر جلال بعد أن عرف بالمجريات الأخيرة أن يخبر يوسف بها؛ ليأخذ رأيه في الموضوع، فهو وزوجته يخافانِ على إيمان لجين بأن يهتزّ ويتزعزع وهي ما زالت في بداية مسيرتها الدينيّة.

(17)

في بيت شعاع الزهراء كانت فتاتنا تتوسّل بأخيها؛ ليُرجِع إليها الهاتف، تدخّلتِ الأمُّ وكذلك الأب لكنّ عناد الأخ الأكبر كان يزداد كلّما زادت محاولة الأهل معه في إرجاع هاتف أخته المسكينة!

قال الأب بصوتٍ عالٍ:

- يجب أن نعرف ما الذي فعلته أختك يا سند..

- حسنٌ.. إن كان ولا بدّ فلتعلم يا أبي بأنّ شعاعًا تنتمي إلى إحدى الحركات المنحرفة!

صُعِقَ الوالد، ووقعتِ الأمُّ على الأرض بعد أن أصابها الدوار المفاجئ..

لطالما كانوا يخشون تلك الحركات التي بسببها ضلَّ الكثير من الشباب الملتزم!!

لطمت شعاع وجهها وهي تبكي بشدّة وتقول:

- أقسم بالله أنّك تتّهمني اتّهامًا باطلًا وبدون أيّ دليل، هيّا اذكر لي اسم تلك الحركة وأعطني الدليل على انتمائي لها!

- لا أعرف اسمها، لكنّي رأيت لديكِ الكثير من الكتب التي تتحدّث عن الحركات في آخر الزمان وعن المهديّ الموعود.

صاحت شعاع بغضب:

- المهديّ الموعود؟! ولكن أليس هو إمام زمانك؟ لماذا أراك تذكر اسمه الشريف وكأنّه إمام ملّةٍ أخرى غير ملّتك؟!

- اسمعي، لا تتهرّبي من الموضوع، هل فهمتِ؟!

- ولكن بربّك، لماذا أتهرّب؟ لستُ خائفة أبدًا؛ لأنّي لم أفعل أمرًا مشينًا على الإطلاق.

قال الأب ويده على صدره من الألم:

- وهذه الكتب؟!

- أبي صدّقني، إنّها كتب تخصّ القضيّة المهدويّة، وكيف يمكننا تعريف الناس والمجتمع بإمام الزّمان روحي فداه.

سألتِ الأمُّ وهي تنهض من الأرض بمساعدة ولدها:

- ولماذا أنتِ بالذات؟ أقصد أنّ هناك الكثيرون غيرك!

- ولكن يا أمّي، بالله عليكِ لو كان الأهل جميعهم بنفس موقفكم هذا مع أبنائهم، فمنِ الشباب الذين سيُمهِّدون الدرب لظهور الإمام؟!

سأل الأخ ونظرات السخرية على وجهه:

- وبرأيكِ، لماذا جميع الأهالي يرفضون هذه الفكرة؟!

- ليسوا جميعهم يا سند، قلت لو!

- لنقلِ الأكثرية..

- لأنّ تلك الحركات قد شوّهت الدّين، وبالتحديد ما يخصّ القضيّة المهدويّة للأسف، وصار الناس يخشون اسم الإمام المهديّ!

- وهل تريدين القول بأنّكِ لا تنتمين إلى أيٍّ منها؟!

- نعم والله، فهذه الكتب توضّح الصورة الناصعة للإمام المهديّ عليه السّلام، وكيف أنّه صاحب قلب كبير ومُحبٍّ لجميع الناس وعطوف على شيعته ومُحبّيه، بل وعطوف على الناس

جميعًا ولا يرفع السيف إلّا في وجه المعاندين والكافرين الذين سيَحُولون بينه وبين تأسيس دولته العالمية العادلة.

ضحك سند وهو يقول:

- لا أصدّق بأنّ هذه الكتب يتمّ طباعتها لأجل الإمام فقط!!

- حسنٌ يا أخي، تعال وانظر، إن كان هناك سطر واحد يدعو لأيِّ حركةٍ أو لأيّ شخصٍ غير الإمام المهديّ عليه السّلام، حينها لك الحقّ بالخوف عليّ هكذا.

- هاتِ الكتب، ستبقى عندي مع الهاتف حتى أتأكّد من صحّة كلامكِ!

أخذ سند الكتب والهاتف إلى غرفته بينما بقت شعاع غارقة بدموعها وهي تردّد:

السّلام على غُربتك وجرحك النازف يا أبا صالح!

***

(18)

في منزل جلال وفضة كانت لجين غارقة بدموعها هي الأخرى، وقد قاطعتِ النوم والطعام بعد أن صدمها موقف شعاع (المخادعة) كما صارت تسمّيها!

وحتى يخرجها جلال من حزنها وليُخرج زوجته من حزنها على أختها قرّر طلب المساعدة من يوسف، فكان له لقاء خاصّ به بعد جلسة الخميس:

- يوسف يا صديقي، يحزنني أن أخبرك بأنّ لجين عادت لحالة التشكيك بالمتديّنين وصارت تكيل لنا شتّى الاتّهامات بحجّة أنّ المتديّن إنسانٌ أنانيٌّ لا يفكّر إلّا بنفسه!!

ارتبك يوسف وخفق قلبه بقوّة عند سماعه اسم (لجين) وتغيّرت أحواله لكنّه حاول بكلّ ما أوتي من قوّة ألّا يُظهِر شيئًا من هذا أمام صديقه جلال..

قال أخيرًا:

- ولكن لماذا؟ وكيف حصل كلّ هذا؟!

صار جلال يسرد القصّة لصاحبه الذي كان ينصت باهتمام محاولًا جمع شتات فِكرِهِ وحبّات العرق تتلألأ في جبينه، تساءل بارتباك بدا واضحًا عليه هذه المرّة:

- وماذا عساي أنْ أفعلَ لأجلها؟!

- اسمح لها أن تجلس معك بعد كلّ جلسة؛ لتجيبها عن أسئلتها وبحضورنا أنا وزوجتي..

قاطعه يوسف:

- لكنّ الأمر ليس بهذه السهولة، صدّقني!

الوالد حفظه الله يرفض هذا الأمر جملةً وتفصيلا.

- حسنٌ، استمرّ بمراسلتها على الإنترنت حتى تعود لوعيها، إنّها بحاجةٍ إلى مواعظك.

هنا، أُسقط بيد يوسف، فقال وهو مطأطئ الرأس خجِلًا:

- يؤسفني أن أخبرك بأنّ مواعظي لن تنفعها كالسابق، ألَا ترى بأنّي صرت أقتصر الجلسات هنا على الأدعية والمناجيات؟!

- ماذا تقصد؟ لم أفهم! خلتُك تفعل هذا لأجل سلامة الحاضرين والتقليل من فرص انتشار الوباءِ لا أكثر! ولم أكن أعلم بأنّ هناك سبب آخر!!!

- آهٍ يا صاحبي، لقد فقدتُ الروحانية أو الملائكية كما يحلو لكم أن تصفوني بها!

- ولكن.. منذ متى؟!

- لا أستطيع إخبارك، لكنِ اعلم يا صديقي بأنّي عدتُ لأخذ الدروس والمواعظ عند أستاذنا الشيخ رضا (سدّده الله) لعلّي أرجع إلى سابق عهدي مع ربّي.

قال جلال بابتسامةٍ عريضة:

- وجدتُ الحلّ إذن، ستكون لجين طالبة الأستاذ رضا، وستحضر معك تلك الجلسات، ما رأيك؟!

صُعِق يوسف عند سماعه هذا الاقتراح، ولم يحر جوابًا، في حين أكمل جلال:

- ها يا صاحبي، أين وصل تفكيرك؟!

انتبه يوسف إلى جلال، وقال له بألم:

- ما في اليد حيلة، لتأتي وأمري وأمرها إلى الله.

لم يفهم جلال ما كان يقصده صاحبه بل لم يفهم لماذا كلّ هذا الحزن والألم الذي كان باديًا على مُحيّاه، شكر جلال صديقه يوسف وقام من مكانه؛ ليذهب إلى فضة ويبشّرها بنجاح خطّتهما بخصوص أختها، لعلَّ الفرحة تطرق باب قلبها الحزين أخيرًا.

***

جاء جلال في الموعد إلى بيت الشيخ رضا، وتصحبه لجين، وقد وجدا يوسف بانتظارهما عند الباب، ترك جلال لجين واقفة مع يوسف؛ ليتّجه إلى عمله، ضغط يوسف على جرس الباب، وما كان من الأستاذ رضا إلّا أن يحاكيهما عبر الجهاز الذي وضعه عند الباب أنِ ادخلا، أنَا بانتظاركما..

رحّب الأستاذ رضا بالاثنين معًا، وكانت لجين مرتبكة بعض الشيء، قال بهدوء بعد أنِ استقرّ بهم المجلس في غرفة الدرس:

- حيّاكما الله، وأهلًا وسهلًا بكما..

تمتمت لجين بصوتٍ منخفضٍ لتكرّر ما قاله يوسف:

- حيّاك الله يا أستاذ.

- بماذا تريدانِ أن نبدأ؟!

نظرت لجين إلى يوسف فوجدته سارحًا بفكره بعيدًا عن الجلسة، قالت بأدب:

- أرجو أن تكملا الدرس الماضي مع إعطائي فكرة مختصرة عمّا تكلّمتُما فيه.

ابتسم الأستاذ وهو يقول:

- على الرحب والسّعة.

ثمّ وجّه كلامه صوب يوسف وهو يقول:

- يوسف يا ولدي، حاول أن تجمع تركيزك كلّه معي..

قال بارتباك:

- معك، معك يا أستاذ!

نظر إليه الشيخ رضا وبابتسامةٍ جميلةٍ ونظرةٍ ثاقبةٍ حاول أن يوصل إليه رسالةً مفادها: لا، إنّك لست معي على الإطلاق!!

خجل يوسف من تلك النظرة، وقرّر أن ينسى وجود لجين ويركّز فكره تجاه الأستاذ فقط.

(19)

شرح الأستاذ الدرس الماضي لفتاتنا بشيء من التلخيص كما طلبت، وكانت فرصةً ليوسف أيضًا في استذكار مفهوم العُجب ومراتبه، بعدها قال الشيخ رضا:

- أمّا اليوم، فسنتحدّث عن عُجبٍ من نوع آخر، إنّه عُجبُ أهل الفساد بفسادهم وهو قوله تعالى: «أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا» وقول الإمام الكاظم عليه السّلام: «العُجب درجات منها ما أن يزيّن للعبد سوء عمله فيراه حسنا».

صمت الأستاذ، فبادرته لجين بالكلام:

- إذا أمكن، توضيح أكثر يا أستاذ.

- إنّ أهل الفساد والمعاصي وأصحاب الأخلاق السيّئة والصفات الرديئة أكثرهم يرون أنفسهم من أصحاب الحريات الخارجة عن التقليد والمحرّرة من التعقيد، فيتصوّر هؤلاء أنّ التديُّن من ضعف العقل، والتحلّي بالأخلاق الحميدة من ضعف النفس والذلّة، وأنّ أداء العبادات من ضعف الإدراك والفهم!!

قال يوسف:

- أليس هذا هو ما تشير إليه الآيات الكريمة:

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا».

أجابه الأستاذ رضا:

- نعم يا ولدي، هي بعينها، أحسنت.

ثمّ أردف قائلًا:

- هؤلاء هم أكثر الناس مسكنة وأسوأ الخلائق حظًّا، وأولئك يعجز أطباء النفوس عن علاجهم، ولا تؤثّر فيهم الدّعوة ولا النصيحة بل قد تعطي أحيانًا نتائج عكسية!!

قالت لجين ودموعها تشرح حالها:

- إلّا من رحم ربّي، نعم يا أستاذ، هناك مَن كان في نفس هذه الصفات السيّئة إلّا إنّه أفاق من الضّلالة؛ ليبصر نور الهداية والصلاح.

كان يوسف وكذلك الشيخ رضا غاضَّينِ للبصر، ولا ينظرون صوب لجين؛ خشيةَ الوقوع في النظرة المحرمة لذلك لم يلاحظا دموعها التي غسلت وجهها لكنّهما عَلِما من طريقة كلامها ونبرة صوتها الحزين بأنّها كانت تقصد نفسها من كلّ هذا!!

قال الأستاذ رضا محاولًا إنهاء المحور للانتقال إلى الآخر:

- نعم يا ابنتي، هناك مَن تدعوه فطرته السليمة وضميره الذي ما زال حيًّا إلى اتّباع الهدى لكنّي أتحدّث هنا عن الأكثرية، إذ إنّ النّفس والشيطان يهوِّنانِ المعاصي في عين الإنسان حتى إذا وقع في معصية، استدرجاه إلى أخرى حتى يصل إلى درجة الاستهانة بالشريعة والقوانين الإلهية، وتوصله يداه إلى الكفر والإلحاد والإعجاب بهما!

سأل يوسف:

- وما الآثار والمفاسد المترتّبة على العُجب يا أستاذ؟

- في البدء، يجب أن نعلم بأنّ أكبر أثر للعُجب هو هلاك العبد، فالعُجب من الموبقاتِ والمُهلكاتِ، حيث ورد عن الإمام عليّ عليه السّلام: «من دخله العُجب هلك».

وورد في الحديث القدسيّ حين خاطب الله تعالى نبيَّه داود عليه السّلام: «وأنذرِ الصدّيقينَ ألّا يُعجبوا بأعمالهم، فإنّه ليس عبد أنصبه للحساب إلّا هلك».

أمّا المفاسد والآثار التي يمكن أن تلحق الإنسان إذا أصيب بالعُجب، فمنها:

١- إحباط الأعمال: إنّ العُجب يحبط إيمان الإنسان، ويفسد أعماله التي يراها صالحة، فتصبح بلا قيمةٍ عند الله تعالى.

٢- استحواذ الشيطان: العُجب يجعل الإنسان فريسة سهلة أمام الشيطان، وقد ورد أنّ نبيَّ الله موسى عليه السّلام قد سأل الشيطان وقال له: أخبرني بالذنب الذي إذا ارتكبه ابن آدم استحوذتَ عليه، قال: إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله، وصغر في عينه ذنبه.

لذلك فالأثر الثالث للعُجب هو..

٣- استصغار الذنوب: حيث يظنّ صاحب العُجب أنّ نفسه زكيَّة طاهرة، فلا ينهض لإصلاح نفسه، ولا يخطر على باله أبدًا أن يطهّرها من المعاصي؛ لأنّ ستار العُجب وحجابه الغليظ يحول بينه وبين أن يرى عيوبه.

٤- الرياء: لأنّ صاحب العُجب يرى نفسه كاملًا؛ لذلك فهو يندفع لطرح بضاعته (أعماله الجيّدة) أمام الناس، وهو بذلك يحاول أن يعرض نفسه عليهم من حيث لا يعلم.

٥- التكبّر: حيث إنّه يرى أعمال الناس لا شيء بالنسبة إلى أعماله، ويسيء الظنّ بعباد الله، ويرى نفسه أرفع منهم، فهنا يكون قدِ استحقر عباد الله وتكبّر عليهم.

وفي الحقيقة يا أولادي أنّ هذا المسكين الذي حسب نفسه غنيًّا عن الله تعالى سيرى في يوم الحساب حيث محكمة العدل الإلهي بأنّ عبادته وأعماله وإيمانه كلّها باطلة وتافهة، بل وبأنّ تلك الأعمال هي نفسها كانت سببًا في هلاكه!

فإن كان نداء رسول الله صلّى الله عليه وآله في ذلك اليوم العظيم:

«إلهي، ما عرفناك حقّ معرفتك، وما عبدناك حقّ عبادتك» فماذا سيكون حال سائر الناس؟!

نعم، فهم عليهم السّلام العارفون بفقرهم إلى الله تعالى، أمّا نحن فإلى الآن لم نعرف حقيقة أنفسنا وخلجاتها ودسائسها!

لذلك يا أحبّتي علينا أن نكون دائمًا في حالة بحثٍ ودراسة لمعرفة حقيقة هذه النفس حتى لا نبقيها جندًا من جنود الشيطان بل ستكون تلك الدسائس والوساوس واضحة جليّة أمامنا، نعرفها ما أن تداهمنا، مكشوفة لدينا فلا نصدّقها ولا نجري خلفها!

سألت لجين:

- ذكرتَ الرياء كأثر من آثار العُجب، فهلّا أوضحت لنا شيئًا عنه؟!

- الرياء هو إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة أو العقائد الحقّة للناس؛ لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم والاشتهار بينهم بالصلاح والاستقامة والتديُّن من دون أن تكون هناك نيّة إلهيّة صحيحة.

سأل يوسف:

- وما النيّة الإلهيّة الصحيحة يا أستاذ؟

- النيّة الصحيحة في كلّ أعمالنا الصالحة يجب أن تكون تقرّبًا إلى الله تعالى وسعيًا للحصول على مرضاته وليس لأجل شيء آخر.

عاد يوسف للسؤال:

- لكن يا أستاذ، العبد يعمل العمل الصالح قربة إلى الله تعالى وليس له نيّة أخرى، بعدها يقوم الناس بمدح هذا العمل والإطراء الكثير والثناء الجزيل على صاحب ذلك العمل فيدخله السرور والفرح نتيجة كلّ ذلك المدح والإطراء رغم أنّه حين عمل ذلك العمل كان مخلصًا فيه لا يرجو منه إلّا مرضاته سبحانه! فهل يُعدّ سروره بمدح الناس نوعًا من أنواع الرياء؟!

- بل نوع من أنواع العُجب يا ولدي! فلقد أعجبه مدح الناس لعمله وصار في داخله يفتخر بنفسه وإلّا ما فرح بالإطراء والثناء عليه!

هزّت لجين رأسها إيجابًا وهي تقول:

- الآن عرفتُ الفرق بين العُجب والرياء!

سأل يوسف وهو يبلع ريقه بصعوبة:

- وكيف يتخلّص العبد من شعور الفرح والسرور والابتهاج حين يمدح الناس عمله أو يقومون بالإطراء على صفاته وأخلاقه العالية؟!

- هذا يتبع معرفة الإنسان لنفسه ودسائسها كما قلنا، فكلّما كان الإنسان عارفًا بربّه وبالتالي عارفًا بتلك النفس تلاشت تلك المشاعر من داخله

- وهل معرفة الله تعني معرفة النفس؟

- نعم يا يوسف، ألم تسمع بالحديث الشريف: «مَن عَرَفَ نَفْسَه فَقَد عَرَفَ رَبَّه»؟!

فالذي يعرف بأنّ الله هو مصدر كلّ خير يصيب الإنسان، وبأنّ القوة الحقيقية التي يمتلكها ذلك الإنسان ما هي إلاّ قوة الله تعالى، فلن يسمح لتلك النفس أن تفرح بأيّ مدح أو إطراء؛ لأنّها ليس لها أيّ فضل في ذلك العمل بلِ الفضل كلّه لله وحده!

وهنا، يجب عليه أن يعود إلى نفسه في حالة المدح والثناء فيذكّرها بكلّ هذا حتى لا تطغى ولا تفرح ولا تتكبّر..

ولهذا السبب أنّ أفضل حلٍّ لإسكات حديث النفس وعُجبها في هكذا مواقف هو تَكرار ذِكر «لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم».

(20)

في تلك الفترة، كانت شعاع الزهراء تمرّ بأصعب مرحلة في حياتها..

إنّها مرحلة (الغربة) التي تمرّ على أكثر المؤمنين تقوى حينما يقرّر الشيطان أن يُسخِّر كلّ إمكاناته وجنوده لإلحاق الأذى بقلب ذلك المؤمن الصادق..

تلك الغربة التي تأتي نتيجة تخلّي الجميع عنك!

عندما يرون بأنّك على (خطأ) وبأنّهم جميعًا على صواب..

حينما يبغضك أقرب الناس إليك، ويسعى إلى أن تكون تعيسًا في حين أنّك لا ترجو لهم إلّا الخير والسعادة، تلك هي الغربة الحقيقية!

الغربة أن تكون بين أهلك لكنّك وحيد..

لا رفيق، لا صديق، لا أحد قريب من قلبك يفهم كلام روحك ويعي ما تريده من هذه الحياة..

الغربة أن يتّهمك كلّ من حولك بالدجل والكذب والخداع في حين أنّك متّجه برحلتك إلى الله!

كتبت رسالةً لأخيها في ورقة وطوتها؛ لتجعلها في جيب سترته، جاء فيها:

لن أكتب لك ما يكتبه الجميع عندما يشعرون بالظلم (سأخبر الله بكلّ شيء) لا، لن أكتبها! هل تعلم لماذا؟!

لأنّ الله لا يحتاج إلى مَن يخبره بأيّ شيء، فهو أقرب إلينا من حبل الوريد!

ثمّ كتبت بدموع عينيها وخطّها المرتجف قوله تعالى:

«وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ»

وختمت رسالتها القصيرة تلك بقول الإمام عليّ عليه السّلام:

«إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس، فتذكّر قدرة الله عليك».

***

وفي أثناء عمله، وجد الرسالة فصار يقرأ باهتمام وقد عرف خطّها ولاحظ بقع الدّموع التي غيّرت ملمس وشكل الورقة، هزّته الآية الكريمة كما هزّه حديث الإمام عليّ عليه السّلام!

قرّر إعادة الكتب والهاتف إلى أخته على أن يبقى مُراقبًا لها من بعيد.

في البيت، كانت فرحة شعاع بالكتب أكثر من فرحتها بالهاتف!

صارت تُقبِّل كتبها التي مُلِئت باسم الحبيب الموعود ودموعها تجري أنهارا..

فتحت هاتفها، وصارت تراسل لجين:

- حبيبتي لجين، بفضل الله تعالى وعناية صاحب الزّمان أعاد لي أخي الأكبر هاتفي وكتبي أخيرًا

استلمت لجين الرسالة فخجلت من نفسها بعد أن أساءتِ الظنّ بصديقتها، كتبت وعيونها مُغرورقة بالدّموع:

أهلًا بعودتك أيّتها الغالية، الحمد لله تعالى على نعمهِ الوفيرة، وشكرًا لصاحب الزّمان روحي فداه على عنايته وألطافه الكثيرة.

(21)

قرّر يوسف التحدّث مع لجين عن رغبته بالارتباط بها بعد أن شعر بأنّ الأمر قد زاد عن حدّه في مسألة التفكير بها..

كتب لها رسالة حاول جاهدًا أن تكون في نظرها رسالة مهذّبة، وبأنامل مرتبكة من شدّة الخجل طلب يدها، فما كان من لجين إلّا الردّ بعد دقائق، وقد كتبت بفرحٍ لا يخلو من الارتباك:

- حيّاك الله أستاذي، المسؤول عنّي حاليًا هو زوج أختي وصديقك جلال، أخبره أنت بالأمر، فأنَا أخجل من ذلك.

طار يوسف من الفرح ونزل مهرولًا إلى أمّه بعد أن أفصحت له لجين عن موافقتها في الارتباط به.

فرحتِ الأمُّ كثيرًا، حالها حال أيّ والدةٍ ترجو أن ترى فلذة كبدها مستقرًّا عاطفيًّا واجتماعيًّا، أمّا الوالد فكان له رأي آخر!!

فما أن عرف أبو يوسف بأنّ الفتاة التي يريد ولده الارتباط بها هي نفسها تلك الجريئة التي تركته يتكلّم ودخلت غرفة الضيوف راكضةً صوب يوسف حتى صُعِق وهو يصرخ:

- من المستحيل أن تكون تلك كنّتي!!

حاولتِ الأمُّ ثنيه عن قراره الرافض هذا، لكن ما من فائدة، فهو من النوع الذي يصدر الحكم على الشخص من أوّل موقف!!

***

مضتِ الأيّام وعذاب يوسف يزداد، ولم تكن لجين تعرف ما سبب التأخّر في التقدّم لخِطبتها إلى أن جاء ذلك اليوم الذي خرجا فيه من حلقة الدرس، فلم تجد لجين جلال وفضة في انتظارها كما في كلّ مرة، اتّصلت بأختها فأخبرتها بأنّ السيّارة قد تعطّلت فأخذها جلال إلى محلّ التصليح، وإلى الآن لم يعد.

كان يوسف يقف بالقرب منها ينتظر قدوم جلال لأخذها، فَعَلِمَ من خلال مكالمتها بأنّه لن يأتيَ اليوم، فقال خافضًا رأسه:

- اركبي معي لأوصلك، فليس من الصحيح أن تبقي واقفة هكذا عند باب الأستاذ!

مشت معه نحو موقف السيّارات القريب من بيت الأستاذ، انتهزت لجين الفرصة أثناء ذلك؛ لتسأله:

- هل لي أن أعرف ماذا حصل بشأن الخِطبة؟!

ظلّ يوسف صامتًا لبرهة من الوقت ثمّ رأى أنّه لا بدّ من الإجابة:

- إنّه والدي، أتذكرين ذلك الموقف الذي جمعني بكِ أوّل مرّة وإصرارك على مقابلتي؟!

- نعم أذكره..

- لقد حكم عليكِ بأنّكِ..

- بأنّي ماذا؟!

- فتاة غير مهذّبة!

صمتت لجين، ولاحت دمعة انحدرت على خدّها، فأسرعت لمسحها، فكبرياؤها يمنعها من البكاء بسبب رجلٍ لا يحبّذ خِطبتها لابنه!

فتح لها يوسف باب السيّارة الخلفي لتصعد، مدّت يدها وأغلقتِ الباب رافضةً الصعود وهي تقول:

- لا داعٍ، سأرتجل صوب المنزل، فهو ليس بعيدًا من هنا.

صاح في وجهها:

- ماذا؟! وماذا سيقول عنّي جلال إن رآكِ تسيرين وحدكِ في الشارع؟!!

قالت بألم:

- يجب أن ينتهي كلّ شيء، فلقد قالها أحد المفكّرين:

"إنّ سوء أخلاق الملتزمين بالدّين هي السبب الرئيس في ابتعادِ الناس عن دينهم".

أوصل هذه الرسالة لوالدك رجاءً واتركني بحالي، فلن أسمح لنفسي بالتواصل معك بعد اليوم.

مشت صوب الشارع بينما ترك هو سيّارته في مكانها؛ ليذهب خلف لجين التي كانت تتمنّى لو أنّها ماتت ولم تسمع وصف والد يوسف لها!

***

قرّر يوسف زيارة الإمام الرّضا عليه السّلام؛ ليطلب من الله هناك وبحقّ ذلك الإنسان المقدّس أن يقضي له حاجته في خِطبته للجين، كان أمله كبيرًا في تلك الزيارة بحيث إنّه اشترى لها من هناك خاتمًا من الفيروز وقرّر أن يهديه إيّاها في عقد قِرانهما!

وما أن عاد من مشهد الرّضا عليه السّلام حتى كان أوّل أمرٍ فعله أنّه أعاد طلب الخِطبة على والده، فما كان من الأخير إلّا أن أعطى قرارًا مصيريًّا لا رجوع معه على الإطلاق:

- اسمع يا يوسف، إن كرّرت طلبك هذا مرّة أخرى بخصوص تلك الفتاة، فلن يبقى مكان لك في هذا المنزل، هل فهمت؟ بل وسأبقى غاضبًا عليك إلى أبد الآبدين.

كان في بال يوسف أن يوضّح له بأنّ لجين قد تغيّرت كثيرًا، كما أنّها لم تكن بمستوى الوقاحة التي وصفها بها لكنّ أسلوب والده الحادّ والقاسي جعله يعزف عن فكرة تلك الخِطبة مطلقًا.

خرج من المنزل قبل أن يرى والده دموعه فينعته بالجاهل الطائش!

صار يتمشّى على الجسر الكبير في مدينتهم المطلّة على نهر الفرات، مدَّ يده إلى جيبه ليخرج (خاتم الفيروز الرضويّ)

ألقى بذلك الخاتم في مياه النهر من أعلى ذلك الجسر، واعتبر موقف والده الرافض أنّه عقوبة من الله تعالى على تماديه في الحديث مع لجين أثناء المراسلات في الهاتف، تذكّر كيف أنّه كان _ولأجل أن لا تقطع علاقتها به_ يحاول مرارًا وبأيّ طريقة استمالة قلبها نحوه!

تذكّر محادثته الأخيرة معها عندما أخبرها بأمر الاستخارة التي أخذها في المرّة الأولى وهو على سجّادة صلاته فظهرت له آية محذّرة منذرة!

ثمّ أعادها ثانية عند أحد الفقراء بعد أن دفع له الصدقة، فكانتِ الآية أكثر تحذيرًا من سابقتها!!

أعادها للمرّة الثالثة عند مرقد الإمام الرّضا عليه السّلام فكانتِ النتيجة نفسها!!

فما كان من لجين إلّا أن كتبت له في وقتها: يقينًا كلّه خير.

كان جوابه لها في تلك اللحظة:

- وأين الخير في الموضوع؟ فأنا لم أخترككِ إلّا لأنّي وجدت فيكِ الفتاة التي تبحث بصدقٍ عن ربّها ودينها وآخرتها!

تمشّى على ذلك الجسر وذاكرته ما زالت عند تلك المحادثة وما كان قد كتبه لها:

- لقد تعاهدنا على تكوين أسرة يرضى عنها الله تعالى وتكون عونًا وسندًا لصاحب العصر والزّمان..

توقّف عند هذه النقطة من المحادثة؛ لينظر إلى ذلك النهر وقد أشعل بعض الشباب نارًا على جرفه، فصار ينظر إلى النار وكأنّ الغطاء قد كشف له؛ ليرى تلك المخلوقات النارية (جنود إبليس) وهم يحيطون بكبيرهم الذي بانت أنيابه الصفراء وهو يستمع إلى ما ينقلونه له من أفعال بعضٍ من المتديّنين، حينها سمعهم يوسف وهم يخبرون كبيرهم عن تلك المحادثة الأخيرة بينه وبين لجين بينما قهقه الشيطان وهو يقول: وأين المهديّ من كلّ هذا؟ بل هل يرضى مهديُّهم عن تلك المحادثات التي تعقد سرًّا بين الجنسين؟!

صفَّقَ جنود إبليس وسال اللُّعاب من بين أنيابهم بشكلٍ مقزّزٍ وهم يردّدون:

لا يهمُّ إن كان مهديّهم غير راضٍ عمّا يفعلون، المهمّ أنّهم صاروا فريسةً سهلةً لنا! السلاسل القوية التي كنّا نربطهم بها سابقًا رغم ذلك يكسرونها ويقومون نحو ربّهم وإمام زمانهم، اليوم صرنا نستبدلها بخيوط ضعيفة بل أضعف حتى من الشعرة لكنّهم لا يتمكّنون من التحرّر منها!!

ضحكوا جميعًا وهم يتشمّتون ويسخرون من الدين وأهله بينما كان قلب إمام الزّمان في تلك اللّحظات يعتصر ألمًا وحزنا.

(22)

كان سند في هذه الفترة قد قرّر مراقبة أخته شعاع أثناء تواجدها في الجامعة..

لاحظت لجين وجود شابٍّ غريبٍ يتتبّع آثارهما هي وشعاع أينما ذهبتا! وبما أنّ الأخيرة كانت غاضّة للبصر أكثر من صديقتها، فإنّها لم تلاحظ شيئًا ممّا كانت تلاحظه لجين!

أحسَّت لجين ببعض الشبه بين ذلك الشابّ وبين صديقتها شعاع فخمَّنت أن يكون هو نفسه سند أخو شعاع الزهراء!!

لم تشأ فتاتنا إخبار صديقتها حتى لا تزيد من قلقها وحزنها، فقرّرت أن تكشف أمره بنفسها وبعيدًا عن عِلم شعاع.

ففي إحدى المرّات، تحجّجت لجين بالدوار والصداع الخفيف حتى لا تدخل إلى قاعة الدرس..

قالت شعاع بقلق:

- سأبقى بجانبكِ ولن أتركِكِ وحدكِ.

دفعتها لجين وهي تقول:

- ولكن بربّكِ يا شعاع، من سيكتب لنا المحاضرة؟!

- حسنٌ، ستبقى عيني على الهاتف، فإنِ احتجتِني اتّصلي، اتّفقنا؟

- اتّفقنا.

تنفّست لجين الصعداء وهي ترى صديقتها تبتعد بينما كانت نظرات ذلك المجهول تتابعها..

قامت من مكانها، واتّجهت نحوه، وبشيءٍ من الارتباك قالت:

- السّلام عليكم

- وعليكم السّلام، أهلًا لجين!

- وتعرف اسمي؟!

- وكيف لا أعرفه وأنتِ أقرب إنسانة إلى شعاع الزهراء..

- إذن أنت (سند) أخو شعاع، صحيح؟!

- نعم، وهل لشعاع سند آخر غيري؟!

انتهزت لجين الفرصة لتقول:

- تمنّيت لو كنتَ فعلًا سندها في هذه الحياة لكنّك لم تكن اسمًا على مسمّى بلِ العكس صحيح!!

دمعت عيناها وهي تقول مبتعدة عنه:

- إنّك تحمل معنًى مغايرًا لاسمك تمامًا، للأسف!

كان سند يستمع إليها وهو متسمّر في مكانه لا يعرف ما يقول!

عادت أدراجها نحوه كمن نسى شيئًا مهمًّا لا يستطيع إلّا أن يبوح به، قالت بأسى:

- عندما سمعت بتصرّفاتك مع شعاع، تمنّيت أن يكون أخي الشهيد حيًّا؛ ليعطيك درسًا في معاني (الأخوّة والمروءة والشهامة).

- ولكن يا لجين، إنّ كلّ ما أفعله مع شعاع هو لمصلحتها، صدّقيني!

- اعلم يا أخي بأنّ شعاع الزهراء هي من أنقى وأطهر الفتيات اللواتي عرفتهن على الإطلاق، لقد علّمتني الكثير عن إلهي وديني وإمام زماني، فاتّقِ الله فيها، وافتخر بأنّ لك أختًا قلَّ نظيرها في زمننا الصعب هذا.

اطمئنَّ من ناحيتها، ولا تراقبها في كلّ صغيرة وكبيرة، فإنّ هذا يؤذيها ويجعلها تشتكيك إلى خالقك وخالقها.

ثمّ لا تتوقّع بأنّني ضدّ مراقبة الأهل لأفعال أبنائهم وبناتهم..

لا، صدّقني، بل على العكس، إنّما تلك المراقبة مطلوبة؛ لمنعهم من الوقوع في مفاسد هذا الزمان، لكنّ الضغط والشكّ الكثير يولّد حالة سلبية أشبه بالانفجار النفسي والذي قد يؤدي إلى أمراض خطيرة لا يعلم مدى الدمار الذي تلحقه بذلك الإنسان إلّا الله تعالى.

(23)

في درس الأستاذ رضا الذي يجمع كلًّا من لجين ويوسف مع أستاذهما، طلب يوسف من الأستاذ رضا أن يتحدّث لهما عن مرض (التعلّق) وكيف يمكن للإنسان أن يتخلّص منه؟

رفعت لجين رأسها ونظرت إلى يوسف بدهشة، قالت في نفسها: لقد قرّر إنهاء العلاقة، لا يهمّ، أنَا أيضًا بحاجة شديدة إلى هذا الدرس.

بدأ الأستاذ بالحمد والثناء على الله تعالى ثمّ قال:

التعلّق هو الارتباط، فإن كنت متعلّقًا بالدُّنيا، فهذا يعني أنّك مرتبط بها، فهل لي أن أعرف لماذا تريد أن تتخلّص من ارتباطك هذا؟!

أخذ يوسف حسرةً طويلةً وهو يقول:

- أشعر بأنّ هذا التعلّق أوِ الارتباط كما أسميته أنت يا أستاذ يبعدني عن الله تعالى!

- أحسنت يا ولدي، إذن أنت تبحث عن الانقطاع إلى الله تعالى.

- لم أفهم!

- إنّ عكس الارتباط يا ولدي هو الانقطاع أي تقطع ذلك الارتباط نهائيًا، حينها سيكون انقطاعك هذا هو لأجل الله تعالى، ولذلك نسمّيه (الانقطاع إلى الله) وشرطه الانقطاع عن بقيّة الارتباطات الأخرى..

وهذا ما طلبه الإمام المعصوم عليه السّلام: «إلهي هَبْ لِي كَمَالَ الانْقِطَاع إِلَيْكَ» فتكون المعادلة هكذا:

كمال الانقطاع = كمال التعلق

سألت لجين:

- ولكن يا أستاذ، ألم نتّفق بأنّ الانقطاع عكس التعلّق؟! فكيف وضعت بينهما كلمة يساوي؟!!

ابتسم الأستاذ وهو ينظر إلى يوسف ينتظر الجواب منه، فقال الأخير موجّهًا كلامه إلى لجين:

- كمال الانقطاع عنِ الدنيا يساوي كمال التعلّق بالله.

ثمّ أردف قائلًا: يذكّرني حديثنا هذا بأحد مقاطع المناجاة الشعبانية حينما يقول الإمام علي عليه السلام: «وَتَصِيرَ أرْوَاحُنَا مُعَلَّقَةً بِعِزِّ قُدْسِكَ»

قال الأستاذ:

- أحسنت يا يوسف، إذن، تتعلّق الروح بالله فقط بعد أن تتخلّص من كلّ متعلّقاتها الأخرى، فتبدأ بالتحرّر والاتّجاه نحو عالم القُدس وتتجهّز بعد ذلك لتدخل حضيرة القُدس الإلهي.

سألت لجين بلهفة:

- وبعد أن تدخل العالم القُدسي؟

- سؤال وجيه يا ابنتي، بعدها ستكون (مؤيّدة) من الله تعالى، وسيكون كلّ تصرّف لذلك العبد المنقطع إلى الله هو بتأييد من الله!

فنتيجة الانقطاع عن الدنيا والتعلّق بذات الله القُدسيّة هو التأييد الذي يعطيه الله لعبده فيصل إلى الدرجة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى:

«مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

ركّزا معي على عبارة «وَهُوَ مُؤْمِنٌ» فالمقصود من الإيمان هنا هو حتمًا الإيمان الحقيقي وليس الظاهري، الإيمان الذي يرافقه معرفة النفس ودسائسها وبالتالي فكّ الارتباطات التي تجعل الإنسان عبدًا لنفسه! ومن ثمّ الارتقاء إلى معرفة الله تعالى، وكما تطرّقنا سابقًا إلى الحديث الشريف: «مَن عَرَفَ نَفْسَه فَقَد عَرَفَ رَبَّه» فعندما يعرف الإنسان ربّه معرفة حقيقية، سيتعلّق به وحده باعتباره قد فكّ تعلّقاته بكلّ شيء غير الله تعالى..

هنا، سيحصل على الثمرة النهائية وهي التأييد والتسديد من الله تعالى والتي ستظهر على شكل (الحياة الطيّبة) التي يعيشها أولياء الله، وهو قوله تعالى في الآية المذكورة «فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً» فهذه هي الثمرة وهذه هي النتيجة لرحلة السير إلى الله تعالى.

سأل يوسف:

- إذن يا أستاذ، ليس المقصود من الحياة الطيّبة هنا هذه الحياة العادية من مأكل وملبس وسمعة جيّدة وو...

- لا يا ولدي، قد يكون هذا تفسيرًا ظاهريًّا، ونحن نعلم بأنّ القرآن الكريم له تفسير ظاهري وآخر باطني، فالتفسير الباطني _وهو ما يلائم نظرة أهل البيت عليهم السّلام إلى القرآن الكريم_ هو أنّ الحياة الطيّبة هي حياة التأييد الإلهي التي جاءت نتيجة الانقطاع الكامل عن زخارف الدُّنيا ومباهجها والتعلّق الكامل بذات الله القُدسيّة.

فقد نرى شخصًا ظاهر حياته صعبة وقاسية لكنّه في الحقيقة يعيش الاطمئنان الداخلي والسعادة الحقيقية النابعة من تعلّقه بالله وحده.

سألت لجين:

- ألهذا السبب نقرأ في زيارة عاشوراء «اللّهُمَّ اجعَلْ مَحيايَ مَحيا مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ»؟!

- نعم يا ابنتي، إنّما نحن نطلب بذلك تلك الحياة الطيّبة التي يعيشها مُحمّد وآل مُحمّد، حياة التأييد الإلهي، وحياة الاطمئنان الروحيّ، وحياة الانقطاع الكامل إلى الله تعالى.

قال يوسف وقد أطلق حسرةً أخرى:

- سبحان الله! لقد كنتُ أفهم (الحياة الطيّبة) بمعناها الظاهري في حين ظهر لي الآن معنى مغاير تمامًا!

سألت لجين:

- وما أسباب التعلّق بغير الله يا أستاذ؟ ولماذا يجد المرء صعوبة في الانقطاع الكامل إلى الله تعالى؟!

- إنّ من أهمّ أسباب التعلّق بغير الله تعالى هو (حبّ الدُّنيا) وهذا أيضًا له صوره المتنوّعة، فمنها: حبّ الذات، وحبّ المال، وحبّ الشهرة والجاه والسلطة، وحبّ النساء، وحبّ الأبناء ووو....

عادت لجين إلى السؤال:

- ولماذا أرجعتَ كلّ هذا إلى (حبّ الدنيا) فجعلتها هي المصدر لكلّ أنواع التعلّق؟!

- لستُ أنا من أُرجِعها يا ابنتي بل هو قوله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»

هزَّ يوسف رأسه علامةً للموافقة علىٰ كلام الأستاذ وهو يُكمل الآية الكريمة:

«وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا»

- أحسنت يا ولدي، وقبلها ماذا يقول ربُّنا عزّ وجلّ؟

قرأ يوسف:

«وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا»

عادت لجين إلى السؤال:

- وما معنى هذه الآية الكريمة؟

أجابها الأستاذ:

يقول الله تعالى لنبيِّه صلّى الله عليه وآلِهِ: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا؛ ليتصوّروها حقّ التصوّر، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيّهما أولى بالإيثار؟!

وأنّ مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كلّ زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسرّ الناظرين، وتفرح المتفرّجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيمًا تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهيّ، فأصبحتِ الأرض غبراء ترابًا، قدِ انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشتِ القلب، كذلك هذه الدُّنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصّل درهمها ودينارها، واقتطف من لذّته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظنّ أنّه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذّته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوّته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله!

هنالك يعضّ الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنّى العودة إلى الدُّنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط فيه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحة!

فالعاقل الموَفَّق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه:

قدِّري أنّكِ قد مُتِّ، ولا بُدّ أن تموتي، فأيّ الحالتينِ تختارينَ؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتُّع بها كتمتُّع الأنعام السارحة، أمِ العمل لدار أكلها دائم وظلّها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين؟ فبهذا يُعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه.

سرحت لجين بفكرها مع هذه الآية الشريفة وتفسيرها العميق، بينما سأل يوسف:

- وما الدُّنيا في نظر أئمّتنا عليهم السّلام؟ مع أنّني أعلم بأنّ نظرتهم إليها لا تختلف عن نظرة القرآن الكريم..

- نعم يا يوسف، بالضبط، فهم عليهم السّلام يُحذِّرون منها، ومن تعلّقاتها، ويوضّحون لأتباعهم أنّ أسلم طريق للتخلّص منها هو الزهد بكلّ ما فيها!

اسمعا ماذا يقول الإمام عليّ عليه السّلام عنِ الدّنيا، فلقد جاء عنه:

«حبّ الدُّنيا رأس الفتن، وأصل المحن».

سألت لجين:

- وما السبيل للتخلُّص من حبّ الدُّنيا؟

- السبيل يا بُنيّتي هو أن تزهدي فيها ولا تعيرين لها بالًا، حينها سينير الله بصيرتكِ؛ لتعرفي عيوب هذه الدُّنيا وخدعها!

سأل يوسف:

- وأين نجد هذا المعنى يا أستاذ؟

- في قول إمامنا عليّ عليه السّلام:

«ازهد في الدُّنيا يبصّرك الله عوراتها».

- وهل ذكر الإمام عليّ عليه السّلام شيئًا عن متعلّقات الدُّنيا مثل حبّ المال والجاه والسلطة؟!

- نعم يا ولدي، فلقد قال عليه السّلام:

«حبّ المال يوهن الدّين، ويُفسد اليقين»

وقال أيضًا:

«حبّ المال سبب الفتن» وعنه عليه السّلام:

«حبّ الرئاسة شاغل عن حبّ الله سبحانه».

قال يوسف:

- وهل حبّ الرئاسة يشمل السلطة العليا للدولة فقط؟!

- لا يا ولدي، فالرئاسة يُمكن أن تكون في مجموعتك الصغيرة وأنت تحبّ أن تعلوَ على أصدقائك، ويُمكن أن تكون في مكان عملك وأنت تحبّ أن تعلوَ على زملائك، ويُمكن أيضًا أن تكون في بيتك حين تحبّ أن تعلوَ على زوجتك وأولادك!

- أفهم من هذا يا أستاذ أنّه حبّ العلوّ في كلّ شيء؟!

- أحسنت يا ولدي، ولقد ذمّ الله هذه الصفة، وفي المقابل بارك عمل الذين لا يتّصفون بها في قوله تعالى: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

***

استمرّت تلك الدروس لأسابيع طويلة حتى شعر الاثنان بأنّ القلب لم يعد حرمًا لغير الله تعالى.

ودَّعت لجين أستاذها قائلة:

- سأغيب عنِ الدّرس يا أستاذ هذه الفترة؛ لأنّ أختي قريبًا ستضع مولودها بإذن الله، ويجب أن أبقى بقربها، ولا أعلم بعدها هل ستكون ظروفي مؤاتية للاستمرار معكم أم لا..

لذلك أردتُ أن أشكرك على كلّ شيء، كما وأشكر الأستاذ يوسف الذي لم يقصّر معي أيضًا، وقد أبلى بلاءً حسنًا في الإجابة عن كثيرٍ من الأسئلة التي كانت تدور في ذهني قبل حضوري إلى هذه الدروس.

خرج الاثنانِ بعد ذلك الدرس، وكان جلال قدِ اتّصل بيوسف؛ ليوصيه أن يُرجع لجين إلى المنزل؛ لأنّه سيكون في هذا الوقت مع فضة عند الطبيبة.

صعدت لجين السيّارة، وجلست في المقعد الخلفي صامتةً ساهية وكأنّها في عالمٍ آخر!

أمّا يوسف فلشدّة فرحته بنفسه التي عادت إلى ربّها أخيرًا، كان لا يهمّه في تلك اللحظة أتكلّمت لجين بشيء أثناء تواجدها معه في السيّارة أم لم تتكلّم!!

نعم، كان سعيدًا بعودته إلى سعيه، لقد تأكّد من خلال موقفه اليوم عند الأستاذ بأنّه لم يعد متعلّقًا بهذه الفتاة على الإطلاق، عرف ذلك عندما أعلنت عن عدم مجيئها إلى الدرس في قابل الأيام، لم يحزن حينها! ولم يأبه للأمر!

نزلت من السيّارة موَدِّعة له بكلّ أدبٍ واحترام، أغلقت باب السيّارة وهي تحسب بأنّ هذه نهاية القصّة مع يوسف، ولم تكن تعلم بأنّ الزمن سيجبرها يومًا على الاستنجاد به في أمرٍ لم يكن في الحسبان!

(24)

رافقت لجين أختها فضة إلى عيادة الطبيبة للمرّة الثانية خلال هذا الشهر؛ بسبب سوء صحّة فضة، وازدياد أعراض الانفلونزا عليها..

خرجت من الطبيبة وهي تتألّم بشدّة، ركضت لجين نحوها، فدفعتها فضة عن طريقها وهي تقول:

- احذري يا لجين، فلقد شكّتِ الطبيبة في أمري..

- ولكن، ماذا تقصدين؟!

- قالت: هذه أعراض كورونا..

- يا ربّ سترك!! لكن لماذا لا أتقرّب إليك؟! أنا مُصابة سابقًا ولديَّ مناعة.

- لا يا حبيبتي، الطبيبة أكّدت لي بأنّ المُصابين قد تعاودهم الإصابة مرّةً ثانيةً وثالثة!

نزل جلال من سيّارته لاستقبالهما؛ حيث كان بانتظارهما، ففعلت فضة نفس الأمر معه!

أبعدته عن طريقها ومنعته من لمسها، كانت أيّامًا غاية في الصعوبة، تأكّدت إصابة فضة والتي كانت تعاني منذ البداية من بعض المشاكل التنفّسية والتي ورثتها عن والدتها، صار تنفُّسها يضيق يومًا بعد يوم..

كانت لجين تراقبها من بعيد وقلبها يعتصر ألمًا، فلقد أعادت إليها هذه المشاهد ذكرياتها المؤلمة أيام مرض والدتها وموتها بنفس الفايروس!

حان موعد الولادة وما زالت فضة مريضة بل وقد ساءت حالتها أكثر من ذي قبل وصارت نبضات الجنين تبطأ كثيرًا..

أُدخِلت إلى صالة العمليات؛ لإنقاذ حياة الجنين بأسرع ما يمكن، وبعد أقلّ من ساعة، أعلنتِ الطبيبة المُشرفة على العملية وفاة فضة؛ نتيجة مضاعفات الفايروس؛ لتترك طفلتها كالملاك الحزين على بوّابة القدر!

صرخت لجين، ولطمت وجهها، وهي تسمع الخبر، اتّصل جلال بأهله، وسمع يوسف بالنبأ المحزن، فجاء هو وجميع المعارف إلى المشفى بما فيهم شعاع الزهراء وأخيها سند..

كانت لجين في حالةٍ يرثى لها، اقترب منها يوسف وهو يتمتم ببعض الكلمات، فصمتت فجأة!

ابتعد عنها بينما كانت شعاع الزهراء تراقبهما وهي تتّجه صوب لجين وقدِ انبهرت من فعله هذا كما وانبهرت من هيبة هذا الشابّ ونورانيته!

هدأت لجين ولم تفعل شيئًا عند مقابلتها لشعاع غير أنّها ذرفتِ الدّموع على كتفها ثمّ مسحت دموعها لتطلب من صديقتها أن تجلب لها الطفلة الصغيرة؛ لتحضنها وتعوّضها عن حنان الأمّ الراحلة..

ذهبت شعاع لجلب الطفلة من الحاضنة، فالتقت بيوسف في ذلك الممرّ وكان يُسندُ جلالًا بذراعه، يطبطب على كتفه ويمسح دموعه!

ردَّدَت خافضةً بصرها هامسةً مع نفسها:

حفظك الله لأهلك، لا أعرف ماذا كان قد حلَّ بلجين وجلال لولا مجيؤك؟ وكأنّ الله أرسلك إليهما!!

بقت شعاع مع لجين في منزل الأخت الراحلة خلال فترة استقبال النساء المعزّيات وهي تحاول بكلّ طريقة أن تواسيها وتلملم شتات روحها وتداوي جراحاتها..

سألتها وهي تحتضن الطفلة الصغيرة (فضة) بين ذراعيها وتشربها الحليب من الرضاعة الزجاجية:

ـ لقد دعوت لذلك الشابّ كثيرًا، كان كلامه كالمرهم لروحكِ!

فبعد أن تكلّم معكِ ببضع كلمات، هدأت أعصابكِ تمامًا..

هزّت لجين رأسها إيجابًا، وأغمضت عينيها محاولةً استعادة كلامه وهي تقول:

ـ إنّه يوسف يا شعاع، الأستاذ يوسف الذي طالما حدّثتكِ عنه، لقد قال لي حينها بأنّ الأستاذ رضا علم بالخبر وطلب منه أن يقول لي هذه الكلمات:

"حان الوقت ليتحوّل الدرس النظري الذي أخذناه عن التسليم لأمر الله إلى درس عملي!".

فعرفت حينها بأنّي يجب أن أثبت لله تعالى تسليمي الكامل لأمره.

لملمت لجين حاجاتها، وأخذت معها الصغيرة فضة؛ لتنتقل إلى العيش في بيت صديقتها شعاع بعد أن صار من غير الممكن البقاء مع جلال في منزل واحد!

لم يكن بإمكانها العيش في أيّ منزل من منازل أقربائها؛ لأنّ جامعتها ستكون في هذه الحالة بعيدةً عنها كثيرًا..

لذلك اقترحت عليها شعاع أن تذهب للعيش معها في منزلها إلى أن تتخرّج مِن الجامعة، أمّا أهل جلال فلقد حاولوا إقناعها بأن ترتبط بولدهم جلال؛ لتبقى مكان أختها الراحلة رحمها الله، ولتكن أمًّا حانيةً على تلك الطفلة المسكينة التي اختار لها والدها اسم أمِّها (فضة) لكنّ لجين رفضت وبقوة طلبهم بالارتباط بجلال، قالت لهم وهي تحتضن فضة الصغيرة بين يديها:

- إنّ جلالًا (أخي) الذي عوّضني عن حنان أخي الشهيد عبّاس رحمه الله، ولا يمكن أن أنظر إليه بغير هذه النظرة!

ثمّ أردفت ودموعها تغسل وجهها الجميل:

- ستبقى فضتي الصغيرة معي وتحت رعايتي إلى أن تجدوا زوجةً لجلال.

***

بدأت لجين حياةً جديدة، وهي تقاسم شعاع الزهراء غرفتها، فلقد قامتِ الأخيرة بدور الأمّ مع الصغيرة فضة أكثر من خالتها لجين!!

فما أسرع ما كوّنت علاقةً روحيّةً مع تلك الطفلة الملائكية، فقد أغدقت عليها كلّ ما تحمله في داخلها من مشاعر الأمومة والحنان الموجودة في داخل أكثر النساء.

أمّا لجين، فقد كانت تعيش في عالم روحيٍّ رائع، يملأه الاطمئنان الداخلي، والتسليم الكامل لأمر الله تعالى، والرضا الجميل بقضائه وقدره، وهي مستمرّة في رحلة السعي إليه سبحانه.

في نفس الوقت، لقد أغدق عليها أفراد عائلة أبي سند كلّ الحبّ والاهتمام، فلقد تفاعلوا مع قصّتها الحزينة حين رحل جميع أفراد أسرتها إلى العالم الآخر ولم يبقَ لها منهم غير ابنة أختها!

***

كان سند في هذه الفترة يعيش في توتّرٍ وقلقٍ على لجين التي قد تعود في أيّ لحظةٍ للعيش مع جلال بعد أن يختار زوجةً ثانية!

ولكن، كيف ربط مصيره بمصيرها هكذا؟!

سند المتغطرس والمتكبر والمغرور تهزّ عرش عواطفه فتاة مسكينة لا حول لها ولا قوة!!

صار لا ينام ليله فهو يفكّر كيف يزيل حبّ هذه المخلوقة من قلبه؟!

لطالما نظر إلى النساء بعين الاحتقار والهوان! لم يحبّ منهنّ غير والدته!

منذُ أن وعى على هذه الدُّنيا وهو يرى أنّ المرأة عار يجب حبسها في المنزل ولا توجد امرأة طاهرة غير أمّه!

كان سند في أيّام مراهقته صديقًا لمجموعةٍ من الفتية الذين كانوا يجلسون فيما بينهم ويتكلّمون عن مكائد النساء ومكرهنّ وعن قصص عجيبة غريبة يسمعونها عن إغواء المرأة للرجل وعنِ اتّباعها للشيطان الغويّ الرجيم!!

حتى تشبَّعَ فكرهُ بهذه الأمور التي ترسم له صورةً قاتمةً عن قذارة فكر المرأة وشيطنتها حتى أنّه قرّر ألّا يربط حياته بأيّ امرأة على الإطلاق!!

عندما كان أصدقاؤه يقولون بأنّ جميع النساء هنَّ سيّئات ماكرات، كان ينتفض من مكانه ويردعهم بالقول: كلا، استخرجوا والدتي من بينهنّ، فهي طاهرةٌ نقيّة.

فكانوا يردّون عليه حينها: وأمّهاتنا أيضًا طاهرات نقيّات وليست أمّك فقط!!

والآن، وبعد أن رأى عداوته لأخته البريئة ثمّ حبّه الصادق للجين، قرّر أن يُصلح فكرةُ هذا حتى يستطيع أن يعيش بسلامٍ مع أفراد أسرته ومع شريكة حياته الجديدة التي اختارها قلبه، لكن كيف له أن يُزيل بسهولةٍ ما تعشعش داخله من خطأ منذ عشرات السنوات؟!

ها هو الآن على أبواب الثلاثينَ من عمره ولم يفكّر قطّ بالزواج بسبب ظنّه السيء بالنساء..

أمّا وقد صارت لجين قريبةً إلى قلبه هكذا بل وقريبة إلى حياته كلّها، فهي تعيش معه في نفس المنزل، يراها يوميًا، يستشعر سعادتها وحزنها، يرى أمام عينيه حياءها، عفّتها، إيمانها وتقواها، فهو لم يعد يرغبُ بحياته القديمة وأفكاره السابقة التي لم يجنِ منها غير العزلة والوحدة!

لقد صارت حياة لجين اليوم واضحةً أمامه والشيء الوحيد الذي كان في حسرته هو (صوتها) فهي تحاول جاهدةً ألّا تظهر أيّ صوتٍ في محضره!!

أوّل وآخر مرّة تحدّثا فيها معًا كانت في الجامعة عندما أعطته درسًا في الأخوة والشهامة والمروءة، كم كانت كلماتها مؤثّرةً فيه، وكم صار يفكّر بإصلاح نفسه بعد حديثها معه!

فهل يفتح الموضوع نفسه معها مرّة أخرى لعلّها تستطيع إصلاحه بشكل كامل؟! وهل فعلاً يريد إصلاح نفسه أم أنّه يريد فقط أن يدخل في أيّ حديثٍ معها؟!

قرّر أن يخوض على أرض الواقع ما كان يفكّر به، فاتّجه في أحد الأيّام إلى الحديقة حيث كانت جالسة وفي حضنها ابنة أختها، اقترب منها وألقى التحيّة بارتباك فردّت بصوتٍ منخفض..

قال لها وقدِ استشعرت ذلك الارتباك في صوته:

- أرجو من حضرتكِ إن سمحتِ طبعًا أن تتحدّثي معي حول ما تكلّمنا عنه في الجامعة، أنَا محتاج كثيرًا إلى نصيحتكِ في هذا الخصوص.

قامت من مكانها وقدِ اعتذرت منه قائلة بارتباكٍ أكثر من ارتباكه:

- ومَن أنَا يا أخي حتى أجود عليك بالنصيحة؟! اسمح لي بالانصراف الآن.

اتّجهت إلى غرفتها مسرعةً، فلاحظت شعاع ارتباكها، خرجت إلى الحديقة حيث كانت لجين جالسةً، فوجدت أخيها يجلس وحده هناك غارقًا في حَيرته ودهشته!!

سألته عمّا حدث بينه وبين لجين فلم يجبها بشيء، قام من مكانه ودخل غرفته هو الآخر، قال وهو يصفق الباب بقوة: تبًّا لها، حياؤها يجعلني أتعلّق بها أكثر!!

أمّا لجين، فكانت مندهشةً من حالها كثيرًا، أين تلك الفتاة الجريئة؟ أين تلك التي تضع عيونها بعيون الرجال دون خجلٍ أو حياء؟!

أين لجين التي كانت تفعل كلّ ما تهواه نفسها؟!

وحتى لا يتحوّل ابتهاجها هذا وسرورها بنفسها إلى عُجب ردَّدَتِ الحوقلة (لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم) ثمّ تحدّثت مع الله:

آه يا إلهي، ما أعذب طريق حبّك وما أصعبه!!

أعنّي يا ربّاه وأبعِد عنّي الشيطان وهوى النفس الأمّارة.

***

صار سند يفكّر بألف طريقةٍ وطريقة؛ ليجعل لجين خاضعةً لهُ ولغروره وتكبّره..

هل تريد أن تصدَّني بكلّ هذه السهولة بحجّة إيمانها وتقواها؟! ثمّ ما بي أنَا؟! هل تراني فاسقًا؟ سأجعلها تتكلّم بكلّ ما تعرفه عنِ احترام المرأة وتقديرها في المرّة القادمة.

نعم، ستخضع لي وتكلّمني بكلّ احترامٍ ورغمًا عن أنفها!!

نفَّذ سند ما وضعه الشيطان في دماغه من خطّة..

كانت لجين نائمةً للتوّ، فإذا بها تسمع صراخ الأب يأتي من صالة الجلوس ثمّ بكاء شعاع في حين تحاول الأمُّ تهدئتها..

سمعت أيضًا صوت سند وهو يحاول قدر الإمكان أن يكون صوته مرتفعًا بما فيه الكفاية؛ ليُسمِع كلّ مَن في المنزل:

- المرأة في نظري تبقى ناقصةَ عقلٍ ودين (حاشاكِ أنتِ يا ماما) ويجب أن تبقى مُراقَبةً طوال الوقت حتى لا يلعب الشيطان برأسها، فما هي في النهاية إلّا أضحوكة في فم الشيطان، ودمية في يده، يقلّبها كيف يشاء!!

صُعِقت لجين ممّا سمعته، تمنَّتِ الخروج لصفع ذلك الوقح ثمّ العودة إلى غرفتها.. نعم، صفعة واحدة تكفي! لكنّها استعاذت بالله من الشيطان الرجيم، قالت في نفسها: لكنّي يجب أن أخرج لإنقاذ شعاع، نعم، سأخرج إليهم دون أن أتفوّه بحرف، لعلّهم إن رأوني خجلوا..

ارتدت عباءتها بسرعةٍ وخرجت من الغرفة، وقعت عيناها بعينيّ سند الذي كان واقفًا أمام الغرفة وكأنّه ينتظر خروجها! وما أن رآها حتى ابتسم ابتسامة الرضا والانتصار..

تفاجأت من نظرته وابتسامته تلك، تساءلت مع نفسها: هل فعلاً هو في حالة من العصبية والغضب؟! لا أراه كذلك!

شعرت في قرارة نفسها _وكان هذا الشعور هو من ثمار تلك الرحلة الصادقة نحو الخالق سبحانه_ بأنّ كلّ ما يقوم به سند الآن ما هو إلّا تمثيلية سخيفة؛ ليجعلها ترضخ له وتدخل في نقاش معه فتطيب بذلك نفسه وتهدأ روحه!

نعم، لقد صارت فتاتنا تنظر بعين الله مصداقًا للحديث الشريف: «احذر فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بعين الله».

صمت سند مُترقّبًا ردَّة فعلها ومُنتظرًا منها الحديث لكنّها اتّجهت بكلّ هدوءٍ نحو صديقتها، فحضنتها ومسحت دموعها، ثمّ استأذنت من أبي سند قائلةً:

- عن إذنكم يا عمّاه، شعاع يجب أن ترتاح قليلًا.

اتّسعت عينا سند، وصار الشرر يتطاير منها، حاول أن يصرخ في وجهها: ما هذا التجاهل العجيب تجاهي أيّتها المغرورة؟! لكنّه تراجع عن تلك الخطوة، فهو في النهاية إن فعلها سيُفتضح أمره!

(26)

صارتِ العلاقة تسوء يومًا بعد الآخر بين شعاع وسند الذي كان يزيد من شروره تجاه الأخت المسكينة، فقط ليخضع لجين ويجبرها على محادثته!!

لم تحتمل لجين الأمر الذي زاد عن حدِّه، ولم تستطع أن تبقى واقفةً مكتوفة الأيدي تنظر إلى صديقتها وهي تذوب حزنًا يومًا بعد الآخر..

توكّلت على الله تعالى في تنفيذ قرارها الذي اتّخذتُه مؤخّرًا، أخذت هاتفها، وصارت تبحث عن محادثة الأستاذ يوسف، كتبت له:

- السّلام عليكم أستاذي الكريم، هل يمكن أن ألتقي بك في الجامعة؟ يوم غد لدينا دوام حضوري، وتلميذتك محتاجة إلى مساعدتك _إن أمكن_ وفي أمر فيه مرضاة الله تعالى.

استلم يوسف الرسالة، ومن أسلوبها عرف بأنّ الأمر غاية في الأهمية، شكر الله في قرارة نفسه إذ جعله يتخطّى تلك المرحلة الصعبة، فها هو اليوم يستلم رسالة لجين من غير أن يتأثّر بحرفٍ واحدٍ من حروفها!

كتب لها: وعليكم السّلام، نعم، سأكون يوم غدٍ في الجامعة كما طلبتُم، إن شاء الله تعالى.

***

في الجامعة:

- أستاذي الفاضل، ماذا حصل بأمر خِطبتك؟! هل ما زال والدك يصرّ على أن تختار إنسانة محترمة ومهذَّبة؟!

تفاجأ يوسف من سؤالها، قال بدهشة:

- نعم هو كذلك، ادخلي في الموضوع مباشرةً، أرجوكِ أختاه.

- لقد وجدتُ لك فتاةً على مرامك ومرام الوالدينِ الكريمينِ بإذن الله.

- ومن هي؟!

- أتذكر تلك الفتاة التي كانت معي في المشفى يوم وفاة أختي رحمها الله تعالى؟.

- نعم، أذكرها!

- هي نفسها صديقتي شعاع الزهراء التي أبصرتُ كثيرًا من حقائق ديني على يديها.

وقبل أن يتكلّم يوسف بشيء، صارت لجين تشرح له عنِ التزام شعاع الدينيّ وأخلاقها السامية، وفي نفس الوقت أخبرته بوضعها المتأزّم مع أخيها الذي يعاملها بكلّ احتقار وذلّة..

في هذه الأثناء، دخل سند إلى الجامعة وهو يرى نفسه كالأسد الذي يبحث عن فريسته!

صُعِق وهو يراها تجلس مع شابٍّ وسيم تبدو عليه سيماء الصالحين! ورغم أنّه لاحظ المسافة التي تركها الاثنان بينهما إلّا أنّ عقله المتهور صار يرسم له صورًا أخرى!!

ركض نحوها كالوحش، وسحب يوسف من قميصه وهو يصرخ في وجهه: ماذا تفعل معها أيّها النذل؟

ثمّ أدار وجهه نحو لجين؛ لينهرها بقوة وهو يردّد بغضب:

- وأنتِ أيّتها المؤمنة الملتزمة، لا تتكلّمين معي في المنزل بحرفٍ واحدٍ بحجّة العفّة والحياء، فمالي أراكِ تجلسين مع هذا الـ....

قاطعته لجين ودموعها تواسي حرقة قلبها:

- كفاك يا سند، ألَا يكفي ما تفعله بأختك في المنزل فجئت لتكمل ظلمك معي؟ وأين؟ هنا في الجامعة أمام خلق الله جميعا؟!

طأطأ يوسف رأسه أرضًا وقد عرف من يكون هذا الشابّ!

وجَّهَ كلامه إلى لجين محاولًا تهدئتها:

- حسنٌ أختاه، صار لديّ كامل التصوّر عنِ الأمر الذي تحدّثنا به قبل قليل، أدعو الله أن يفرّج عنكم في القريب العاجل، وأن يوفّقني لمساعدتكم في كلّ ما تمرّون به.

والآن هل أوصلكم إلى المنزل بسيّارتي؟! ماذا تقول يا أخ سند؟!

خجل سند من أخلاق يوسف العالية، وتذكّر بأنّه كان قد رآه مع جلال في المشفى!!

اعتذر عن موقفه، وفسَّر تصرّفه ذاك نتيجة حرصه على لجين التي صارت بمقام أخته شعاع..

ابتسم يوسف ومدَّ يده لمصافحة سند وهو يقول:

- لا بأس، هل تقبلون دعوتي في إيصالكم إلى المنزل؟!

قال سند وهو يمدّ يده خجِلًا:

- شكرًا لك، سيّارتي موجودة.

نظر إلى لجين وقد كسرت قلبه بدموعها التي كانت تحاول أن تمسحها بمنديلها، لكن دون جدوى، قال وقد أظهر مزيدًا من الندم:

- هيا يا لجين، دعينا نذهب.

قالت وهي تنظر صوب يوسف:

- أشكرك يا أستاذ على تلبيتك الدعوة، عليّ أن أرحل الآن، ما زالت لديَّ محاضرة سيحين وقتها بعد دقائق، في أمان الله.

- في أمان الله وحفظه أختاه.

كتم سند إحراجه بسبب تجاهلها له أمام يوسف، وقرّر أن يتوقّف عن ملاحقتها.

ودَّع يوسف وتركه ليخرج مسرعًا صوب سيّارته، قال مع نفسه وهو يستقلّ السيّارة ويسير بها بسرعةٍ جنونية:

تبًّا لها، بل تبًّا لي، أصلًا ما الذي جاء بي إلى الجامعة رغم معرفتي بأنّ شعاع الزهراء لم تأتِ إلى هنا اليوم؟! ما الذي فعلته بك لجين يا سند؟! إنّك تلاحق الفتاة دون وعي منك يا رجل!

(27)

بعد أسبوعٍ واحدٍ من البحث والسؤال عن أحوال عائلة أبي سند، قرّر يوسف متوكّلًا على الله تعالى بالتقدّم لخِطبة شعاع الزهراء..

وما أشدّ دهشة سند وهو يرى يوسف طارقًا بابهم خاطبًا أخته!!

قال في نفسه:

- للهِ درّكَ يا يوسف! رغم كلّ ما بدر منّي في ذلك اليوم لكنّك لم تغيّر رأيك في خِطبتك لأختي، عرفتُ الآن بماذا كنتُما تتحدّثانِ أنت ولجين حينها!

تسارعتِ الأحداث، وتمّ عقد قِران يوسف وشعاع، وصارت علاقة الصداقة بين يوسف وسند تتوثّق يومًا بعد الآخر..

كان سند يستغلّ زيارات يوسف لبيتهم؛ ليسأله عن أمور طالما أراد أن يتحدّث بها مع أحدهم، إذ كان يرجو أن يجد مَن يحدّثه ويعرّفه بمكانة المرأة الحقيقية وعن نظرة الدّين لها، إذ صار يشعر بضرورة تصحيح هذه الأفكار التي تعشعشت في دماغه منذ فترة المراهقة.

كان جالسًا مع يوسف في إحدى المرّات، فاستغلّ انشغال شعاع عنهما وهي تقف في المطبخ مع والدتها ولجين لإعداد وجبة العشاء فوجّه سؤاله إلى يوسف:

- يوسف يا صديقي، هلّا حدّثتني عن مكانة المرأة في عصر الجاهلية ومكانتها في الإسلام؟ وهل فعلًا أنّ رسول الله وأهل بيته قدِ احترموها وأولوها مكانةً خاصّةً رغم ما بها من مساوئ ومخاطر؟!!

هنا، تذكّر يوسف كلام لجين عن سند، ونظرته القاتمة التي ينظر بها إلى النساء جميعًا، فقال بعد التوكّل على الله:

- اعلم يا يوسف بأنّ المرأة في الجاهلية كانت بمثابة العار الذي يجب أن يُدفن قبل أن يرى نور الحياة! وهي ما تسمّى بظاهرة (وأد البنات) حيث كانوا يدفنون بناتهم وهنَّ على قيد الحياة بحجة أنّ البنت ستلحق العار بأهلها إن غفلوا عنها لحظات!!

طأطأ سند رأسه وهو يتمتم مع نفسه: هذا كان تفكيري أنا أيضًا.

أكمل يوسف وهو يقرأ على مسامع سند وبصوتٍ شجيٍّ قوله تعالى: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ».

جاء الإسلام فحارب تلك الظاهرة ووقف بقوّة مع المرأة..

قاطعه سند متسائلًا: بقوّة؟!

- نعم يا صديقي، وهل ترى أنت غير ذلك؟!

- أكمل يا يوسف، أريد أن أسمعك إلى النهاية، وبعد ذلك سأطرح عليك أسئلتي.

- حسنٌ، اتّفقنا.

- لو بحثنا في جميع الأديان المعروفة حاليًا، لما وجدنا غير الإسلام منصفًا للمرأة وراسمًا لها حدود الحقوق والواجبات، لها وعليها.

قال تعالى:

«وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»

أكمل سند الآية الكريمة بقوله: «وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ»

ضحك يوسف وهو يقول: أراك حفظت الآية جيّدًا يا صاحبي!

ضحك سند هو الآخر وغمز بعينه ليوسف قائلًا:

- رأيتك توقّفت، فأكملتها أنا؛ لأنّ التوقّف في هذا الموضع بالذات سيقلب الموازين لصالح المرأة!

أمّا عندما نكمل الآية الكريمة، فسيتّضح مقدارها الحقيقي وهو أنّ الرجل أعلى منها درجة! قهقه سند عاليًا كمن يعيش نشوة الانتصار.

هزّ يوسف رأسه رفضًا وهو يقول:

- لا يا سند، اسمح لي أن أخبرك بأنّ ضحكتك ليست في محلّها، إنّ الدرجة التي زاد فيها الرجال على المرأة هي (عليهِ وليست له)

عبس سند في وجهه وأقطب حاجبيه قائلًا:

- كيف عليه وليست له؟ لم أفهم!!

- يعني أنّ القوامة هي من حقوق الرجل على نساء بيته، وهي أن يقوم بالإنفاق عليها من أمواله ولا حقّ له بمطالبتها أن تنفق على نفسها من أموالها الخاصّة، فهي لها كامل الحرية في التصرّف بأموالها، وفي المقابل عليه هو أن يوفّر لها كامل متطلّباتها من مسكنٍ وملبسٍ ومأكلٍ وعيشٍ كريم..

- كلّ هذا من أمواله هو؟!

- نعم.

- وهي لها الحرية في التصرّف بأموالها دون أن يحاسبها؟!

- بالضبط.

- وإن أساء التصرّف بأمواله، فهل لها الحقّ في أن تحاسبه أمام الله والشرع وتطالبه بحقّها في ذلك المال؟!

- نعم، أحسنت.

- عجيب!! لكن كيف لم أفهم هذا طوال حياتي كلّها؟! بل وفهمتُ أنّ الآية تقصد شيئًا آخر!

- السبب بسيط يا سند، لأنّك حفظت فقط بعض الآية التي تدلّ على قوامة الرجل!! أمّا تكملتها فلقد تناسيتها كما تناساها المجتمع للأسف الشديد!

- وما تكملتها؟ أنا الذي أحفظه: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ»

- اسمعِ التكملة يا صاحبي:

«الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ»

هل سمعت يا أخي؟ وبما أنفقوا من أموالهم!

- وهل يحقّ للمرأة أن تتصرّف في أموال زوجها كيفما تشاء ما دام الله قد أعطاها كلّ هذه الحرية؟!

- لا، فهي لها الحقّ أن تتصرّف في أموالها هي وليس في أمواله، كما أنّه ليس له الحقّ بالتصرّف في أموالها..

- الآن عرفتُ حقوق الزوجة، فما حقوق الزوج إذن؟!

- إلى الآن لم نكمل حقوق الزوجة يا سند.. اسمعني يا أخي

انظر ماذا يقول الإمام السجّاد عليه السّلام في رسالة الحقوق:

«وحقّ الزوجة أن تعلم أنّ الله عزّ وجلّ جعلها لك سكنًا وأُنسًا، وتعلم أنّ ذلك نعمة من الله تعالى عليك، فتكرمها وترفق بها، وإن كان حقّك عليها أوجب فإنّ لها عليك أن ترحمها؛ لأنّها أسيرك وتطعمها وتكسوها، فإذا جهِلَت عفوت عنها».

- هل رأيت يا يوسف؟! يقول إنّ المرأة أسيرة عند الرجل! وأنت تريد أن تصفها لي بأنّها يجب أن تُعامَل كالأميرة!!

- اتقِ الله يا سند، فالإمام عليه السّلام هنا يشير إلى نقطةٍ معيّنةٍ وهي إحدى حقوق الزوج (بأن لا تخرج زوجته من البيت إلّا بعلمه) أي أنّها هنا تصبح كالأسير، لذلك عليك أن ترحمها وهو قوله عليه السّلام «فإنّ عليك أن ترحمها» أي أن تعاملها بمنتهى الرحمة والرفق والكرامة «فتكرمها وترفق بها» لا أن تتسلّط على رقبتها وتضيّق الخناق عليها!!

وهنا إشارة إلى أولئك الذين يمنعون نساءهم من الخروج إلى أيّ مكانٍ بحجّة حقّ الزوج، فلا زيارة للوالدين ولا زيارة للأقارب وحضور مناسباتهم ولا حتى زيارة للأماكن المقدّسة ولا ترفيه عن النفس ولا ولا ولا!!!

بربّك، هل رجل مثل هذا نستطيع أن نعدّهُ ملتزمًا بتعاليم الله وأحاديث رسوله وأهل بيته الذين يطالبونه بالرحمة والرفق مع زوجته؟!

فهل ترى يا صديقي بأنّ الناس هم منِ استخدموا الدّين بشكلٍ خاطئ ففهموا وحفظوا ما يحلو لهم ونسوا وتركوا ما لم يعجبهم!

- لكن يا أخي، ألم يُشِرِ الله إلى مسألة ضرب المرأة؟!

- نعم، أشار سبحانه، ولقد طبّل لهذه المسألة الملحدون والناقمون على الدّين، والمتحدّثون باسم المرأة وحقوقها!!

فتعال معي لنعرف حقيقة الأمر كما أوضحه القرآن الكريم ورسوله الحبيب وأهل بيته الأطهار، لا كما أوضحه لنا أولئك المناصرون زيفًا للمرأة عندما تركوا كلّ المتعلّقات بهذا الأمر وتشبّثوا بكلمة: واضربوهنّ!!

في البداية، لتعرف أنّ هذه الكلمة وردت في آيةٍ أثنت على النساءِ الصالحاتِ بشكلٍ لطيف، إذ قال تعالى:

«فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا».

انظر باللهِ عليك كيف يصف الله النساءَ الصالحاتِ، وهي إشارة إلى أنّ عقوبة الضرب ليست إلّا للمعانِدة التي لا تلتزم بأهمّ حقّ للزوج من بين ثلاثةِ حقوق لا أكثر!

وهو الحقّ الأوّل من هذه الحقوق..

- وما هذه الحقوق الثلاثة؟!

- «حقّ المضاجعة، وحقّ حفظ أمواله، وحقّ عدم خروجها إلّا بإذنه».

فعندما لا تلتزم بهذه الحقوق والواجبات، فهي بذلك تخلُّ بنظام أسرتها وبيتها، وتُعرّض مستقبل هذه العائلة لخطر التمزُّق ثمّ الهدم النهائي لهذا البنيان المقدّس، وبذلك تُعَدُّ ناشزًا، كما أنّ الرجل لو لم يلتزم بحقوق زوجته فيُعدُّ هذا نشوزًا منه، وعليه أن يُعيد إليها حقوقها بالمعروف وإلّا إخلاء سبيلها، وكلّ التفاصيل قد أوضحها الشارع المقدّس بما يضمن حقوق المرأة كاملة..

نعود هنا إلى حالة نشوز الزوجة، والتي هي أخطر بطبيعة الحال من نشوز الزوج؛ لأنِنا نعلم ماذا يعني إذا منعتِ المرأة زوجها من حقّه الشرعي، هنا ماذا على الزوج فعله؟ تشير الآية الكريمة إلى ثلاث خطوات:

١- الموعظة والنصيحة لتلك الزوجة «فَعِظُوهُنَّ»

٢- إن لم تنفعِ الخطوة الأولى، فهجرها في الفِراش «وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ»

٣- إن لم تنفعِ الخطوتانِ السابقتانِ فـ«ضربها تخويفًا وليس انتقامًا» كما تشير بقيّة القرائن التي تتحدّث عن ضرورة الرحمة والرفق مع المرأة، وكما أوضح لنا أهل البيت عليهم السّلام، فلا يحقّ للزوج أن يضربها ضربًا مبرحًا بحيث يترك أثره على جسدها، ويُسبّبُ احمرارًا في المنطقة!!

وإليك رأي ديننا ومذهبنا في هذه المسألة:

(يجوز الضرب، إذا نشزتِ الزوجةُ وامتنعت عنِ التمكين نهائيًا، ولم ينفع معها الوعظ والنصح، ولم ينفع بعد ذلك الهجر في الفراش، فيجوز ضربها من دون قصد الانتقام وذلك فيما إذا احتمل التأثير، وإلّا فلا يجوز، ولابدّ ألّا يكون مُدميًا ولا شديدًا، وإذا أثّر في اسوداد البدن أوِ احمراره، وجبتِ الديّة).

ومعنى هذا أنّ الرجل إذا عَلِم أنّ الضرب التخويفي لن يؤثّر في موقفها، فلا يجوز له ضربها مطلقًا.

- وماذا يعني بالديّة؟!

- هي مال يدفعه لها ويختلف باختلاف التأثير، فقد تكون الديّة ذهبًا أو فضة كما في المسألة التالية:

١- ديّة الازرقاق (مثقالانِ وربع المثقال من الذهب).

٢- ديّة الجرح الذي يسلخ الجلد (٥٢ مثقالًا ونصف مثقال من الفضة).

- وما القرائن من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله وأهل بيته التي تؤكّد كلامك هذا يا صاح؟!

- انظر إلى قوله تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وقوله تعالى: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» وقوله تعالى: «وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»

واسمع أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وآله في هذا الخصوص:

* «اتّقوا الله في الضعيفينِ: اليتيم والمرأة، فإنّ خياركم خياركم لأهله».

* «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي».

فانظر رحمك الله كيف يمهّد الإسلام سبل السعادة الزوجيّة، ويشدُّ الزوجينُ إلى بعضهما، فهو في الوقت الذي يخبر الزوجة بأنّ جهادها هو حفظ حقوق زوجها «جهاد المرأة حسن التبعّل» فإنّه يطلب من الزوج في المقابل أن يرفق بزوجته ويعاملها بمنتهى الرحمة والعطف والمعروف، وأن يحفظ لها كامل متطلّبات الحياة الطيّبة والكريمة.

إنّه يراعي ضعف قوام المرأة وطبيعة جسمها، فلا يطالبها بجهاد الحروب كالرجل، ولا يطالبها بالصّرف المادي على منزلها وعيالها كالرجل؛ لأنّ هذا يعني دخولها معترك الحياة بما لا يلائم طبيعتها الجسمانية التي خُلقت بها، فجعلها الله عزيزةً كريمةً في بيتها الذي أراد لها أن تكون فيه مصدرًا للسكينة والأنس والهدوء النفسي سواء لزوجها أو لأولادها بل لكلّ من يعيش معها في المنزل من أهلها وأرحامها..

فهو بذلك لم يراعِ حقوق الزوجة فقط بل أعطى حقًّا كاملًا ومنزلةً كبيرةً ومنفردةً للبنت والأنثى بصورة عامّة، وهذه تعاليم رسولنا الكريم صلّى الله عليه وآله عن محبّة البنات وضرورة مراعاة مشاعرهِنَّ المرهفة والحسّاسة حين يقول:

* «إذا جاء أحدكم بشيء لأولاده، فليبدأ بالإناث قبل الذكور».

* «خيرُ أولادكم البنات».

* «من فرَّح ابنته فكأنّما أعتق رقبة وِلد إسماعيل».

* «إنّ الله تبارك وتعالى على الإناث أرأف منه على الذّكور، وما من رجل يُدخل فرحة على امرأة بينه وبينها حرمة إلّا فرّحه الله تعالى يوم القيامة».

* «من كانت له ابنة فأدّبها وأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها، فأوسع عليها من نعم الله التي أسبغ عليه، كانت له منعة وسترًا من النار».

* «نِعم الولد البنات المخدّرات، من كانت عنده واحدة جعلها الله ستراً من النّار، ومن كانت عنده اثنتان أدخله الله بها الجنّة، ومن يكن له ثلاث أو مثلهنّ من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة».

* عنِ الإمام جعفر الصّادق عليه السَّلام: «الْبَنَاتُ حَسَنَاتٌ، وَالْبَنُونَ نِعمَةٌ، فَالْحَسَنَاتُ يُثَابُ عَلَيْهَا، وَالنِّعمَةُ يُسْأَلُ عَنْهَا».

اقرأ كيف كان رسول الله يعامل ابنته الزّهراء، وكيف كان عليّ بن أبي طالب يعامل ابنته زينب، وكيف كان الحسين يعامل ابنته رقية التي ماتت على رأسه الشريف وهي تئِنُّ من ألم الفراق، فما الذي ربطها كلّ هذا الرباط بوالدها لو لم يكن طيّبًا معها، رؤوفًا بها وحانيًا عليها؟!

ثمّ انظر إلى علاقته عليه السّلام بابنته سكينة حتى أنّه ذكرها في شعرهِ قبل أن يستشهد وهو يلقّبها بخيرة النساء..

فلقد ورد في مقتلهِ عليه السّلام أنّه لمّا ودَّعَ النساء، كانت سكينة تجلس في ركنٍ بعيدٍ عن الخيمة باكيةً ناحبة، فاتّجه إليها، وضمّها إلى صدره وهو يقول :

سيطول بعدي يا سكينةَ فاعلمي

منك البكاء إذا الحِمام دهاني

لا تحرقي قلبي بدمعكِ حسرةً

ما دام منّي الرّوح في جثماني

وإذا قُتِـلتُ فأنـتِ أولــى بالـذي

تأتـينـه يـا خيـرة النـسوانِ

هذا وإنّ الحسين عليه السّلام كان يُعلنُ أمام الملأ مقدار حبّه لزوجته الرباب وابنتها سكينة وذلك في شعرهِ أيضًا حيث كان يقول:

لعمرك أنّني لأحبُّ دارًا

تحِلُّ بها سكينة والربابُ!

- أيُعلن ذلك أمام الملأ فعلًا؟!

- ولِمَ لا يا أخي؟! ألم يعلنْ ذلك قبله رسول الله صلّى الله عليه وآله حينما كان يُثني على زوجته السيّدة خديجة رضوان الله عليها ويفضّلها على بقيّة نسائه بعد وفاتها؟ بل كان يُعلن حبّه لنساء بيته أمام الملأ وذلك في قوله:

«من أخلاق الأنبياء حبّ النساء»

فغر سند فاهه متعجّبًا، فضحك يوسف وهو يقول: يعني أنّهم كانوا يُحبّونَ نساءهم يا رجل، وليس جميع النساء!!

أكمل يوسف وقد صار يلاحظ علامات الندم والخجل على وجه جليسه:

وتلك الأمّ..

لننظر كيف أولاها الله اهتمامًا أكثر من الأب بثلاث مراتب!! فمن منّا لم يحفظ حديث «أمّك ثمّ أمّك ثمّ أمّك ثمّ أباك»؟!

سأله سند وقد تصبّب العرق من وجهه خجلًا:

- والأخت يا يوسف؟! هل يجب أن نولي لها منزلةً كبيرةً أيضًا كمنزلة الأمّ والزوجة والبنت؟!

- لا تختلف منزلة الأخت عن منزلة البنت! ألم أخبرك قبل قليل بحديث رسول الله صلّى الله عليه وآلِهِ الذي يقول فيه:

«ومن يكن له ثلاث _أي بنات_ أو مثلهنّ من الأخوات وضع عنه الجهاد والصدقة» فهنا، يخبرك رسول الله صلّى الله عليه وآلِهِ بأنّ برّك ورأفتك بأختك أفضل عند الله تعالى من الجهاد في سبيله!! ألم تسمع بعلاقة الحسين والعبّاس عليهما السّلام بأختهما العقيلة زينب؟! ثمّ اسمع هذه الرواية الشريفة واحكم بنفسك كيف يجب أن نتعامل مع الأخت:

ورد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآلِهِ كان جالسًا بين أصحابه، فدخلت عليه امرأة فقام إجلالًا لها، وعظَّمها، وافترش لها رداءه، فجلست وراح يحدّثها، ويُصغي إلى كلامها، وهو مُقبلٌ عليها بكُلِّهِ، حتى إذا فرغت من الكلام وقامت مُنصرفة، ودَّعها النبيّ، وسار خطواتٍ معها، تقدّم أحد الأصحاب يسأله عن هذه المرأة التي استحقّت كلّ هذا التكريم منه، فقال: إنّها أختي من الرضاعة، إنّها شيماء بنت حليمة السعدية.

انظر رحمك الله، أخته من الرضاعة ويكرمها كلّ هذا التكريم! فما بالنا صرنا نُسيء التصرّف مع أخواتنا اللواتي هنَّ من لحمنا ودمنا وقد حملتنا نفس البطن ولنا نفس الأب؟!!

انظر كيف ينطق رسول الله اسم أخته بكلّ فخر بل وينطق اسم أمّه بالرضاعة ويُعلن عنها أمام أصحابه ونحن نخجل إن عرف أحدهم أسماء أمّهاتنا أو إحدى قريباتنا!!

أفبعد كلّ هذا تبقى المرأة مُهانةً وذليلةً وصغيرةً بعينك وعين أمثالك ممّن فهموا الإسلام فهمًا خاطئًا؟!

ثمّ هل تعلم يا أخي بأنّ نظرتكم هذه عنِ المرأة وانعكاس تلك النظرة على تصرّفاتكم مع أخواتكم وزوجاتكم وبناتكم وقد يكون حتى مع أمّهاتكم قد جعلت أعداء الإسلام يُطبِّلون بل ويرقصون ويهلّلون فرحًا؛ لأنّهم صاروا يستغلّون هذه التصرّفات السيّئة وهذا الظلم ضدّ المرأة؛ ليتشبّثوا به بحجّة أنّ الدّين هو مَن يحثّ على هذا التعامل مع المرأة وهذا الظلم لها!!

بعد مرور أقلّ من عام على خِطبة شعاع الزهراء ليوسف، وبينما كان الأهل والأصدقاء يتهيّأونَ لحفل زفافهما الذي بات قريبًا ينصدم الجميع بخبر استشهاد (يوسف الملائكيّ) وقد نزل الخبر كالصاعقة على رؤوس أهله وأحبّته، استشهد يوسف في هجومٍ إرهابيٍّ على نقطة التفتيش التي كانت ضمن واجبه هو وأصحابه في ذلك اليوم..

غفت شعاع في تلك اللّيلة وهي تضع رأسها في حجر لجين التي كانت تمسح عليه بهدوء وهي تردّد:

من صبركِ يا سيّدتي يا زينب، من صبركِ يا جبل الصبر!

رأت شعاع في تلك الغفوة يوسف وهو يرتدي حلّة بيضاء ناصعة ويدخل مع عروسه إلى قصرٍ جميلٍ بين الأشجار الخضراء، سألت شعاع الوِلدان المخلّدينَ الذين كانوا ينتشرون حول القصر عن تلك العروس، فأخبروها بأنّها الحورية التي خلقها الله لهذا الشهيد..

جلست من حلمها وهي تردّد: يوسف، يوسف، ما أسرع رحيلك عنّي!!

بكت لجين لأجلها وأخبرتها بأنّه أمر الله تعالى، وعليها أن تعيش التسليم الحقيقي لأمره سبحانه.

***

وتمضي الأيّام والأشهر ثقيلةً حزينة..

ها هي الذكرى السنويّة الأولى لرحيل الشهيد يوسف إلى أعالي الجنان، وقدِ اجتمع الأهل والمعارف في بيت أبي سند الذي عمل مجلسًا حُسينيًّا مع مائدة طعام، وأهدى ثوابهما إلى روح ذلك الشابّ الطّاهر يوسف الذي كان من المفترض أن يكون صهره الوحيد في هذه الحياة حيث لم يكن له غير شعاع الزهراء بنتًا وغير سند ولدا.

كان جلال من ضمن المدعوين، وقدِ اشتاق إلى رؤية وجه ابنته الصغيرة فضة، فبعد أن رحل الجميع، بقي هو يلاعب ابنته ويحضنها، وفي قلبه أمنيّة بعدم تركها أبدا..

لاحظت فضة الصغيرة مرور شعاع الزهراء من أمامهما وهي تحمل الصحون إلى المطبخ، فركضت نحوها وهي تردّد: ماما.. ماما! وضعت شعاع ما كان في يدها من الصحون على الطاولة بسرعة وحملتِ الصغيرة بين ذراعيها بكلّ حبٍّ وحنان!

تفاجأ جلال من تصرّف الاثنتينِ معًا، إنّ فضة تلفظ كلمة (ماما) بمنتهى العفوية، لكنّها لا تنادي بها خالتها لجين بل شعاع!!

تحدّث مع نفسه:

شعاع الآن منكسرة الجناح مثلي تمامًا، إنّها تحتاج إلى مَن ينتشلها من كلّ هذا الحزن، كما أنّي أرى علاقتها بابنتي علاقة الأمّ بابنتها، ليتها ترضى بي شريكًا لحياتها القادمة!

لم يدم به التفكير طويلًا حتى أخبر لجين بما يدور في خلده وما كان من الأخيرة إلّا أن رحّبت أشدّ الترحيب بالفكرة وهي تهرول صوب صديقتها لإخبارها..

رفضت شعاع الأمر في بدايته؛ لكونها ما زالت تعيش الذكرى المؤلمة ليوسف لكنّها وافقت أخيرًا بعد إلحاحٍ من لجين وقد أقنعتها بأنّ عوض الله لها قد أتى، وبأنّ جلالًا لا يختلف عن يوسف كثيرًا، فهو صديقه الروحيّ وشبيهه في الأخلاق والتقوى، وبأنّ يوسف سيكون مُطمئنًّا عليها أكثر معه.

***

حان الوقت لرحيل الاثنتينِ (شعاع ولجين) معًا وتركهما المنزل!

فلم يعد للأخيرة حجّة للبقاء في منزل عائلة أبي سند بعد أن عُقِدَ قِران جلال وشعاع في حفلٍ صغيرٍ كان هو نفسه حفل الزفاف! فلقد قرّر جلال أن يأخذ عروسه وابنته وأخت زوجته الراحلة ويتّجه إلى بيته مباشرةً بعد عقد القِران دون إحداث أيّ ضجيج؛ إكرامًا لروح زوجته الأولى وإكرامًا لروح صديقه الشهيد يوسف.

كان سند يراقب تسارع تلك الأحداث بصمت، ها هي لجين تعود من حيث أتت دون أن يُثبت لها حبَّه ووِداده.

صار يؤنّب نفسه بِشدّة: أيّ تكبّر وغرور تملك يا سند؟!

متى تُذِلُّ هذه النفس وترضخها للواقع؟! ألم تُغيّر نظرتك عن المرأة؟

ألم يستطع يوسف الملائكي أن يُغيّرك جذريًّا؟! إذن لماذا لم تطلب يدها إلى الآن؟! هل تنتظر أن تسمع خبر خطوبتها لرجلٍ غيرك؟!

إلهي ساعدني لأُذلل نفسي المتكبّرة..

قالت له أمّه وهي تتوسّل إليه:

- ألم يحنِ الوقت لنفرح بك يا ولدي؟ ثمّ ها أنا أقوم بكلّ أعمال المنزل بمفردي بعد أن كانت كلٌّ من شعاع ولجين تقومان بها بدلاً عنّي..

شعر بأنّ نبضات قلبه ستفضحه حينما سمع اسم لجين يجري على لسان أمّه! تحامل على نفسه وهو يسألها:

- ما رأيكِ في لجين يا أمّي؟!

- آهٍ يا ولدي، والله إنّي اشتقتُ إليها كثيرًا كاشتياقي إلى أختك شعاع.

قال وهو يبلع ريقه بصعوبة:

- إذن توكّلي على الله واخطبيها لي إن كانت تعجبكما أنتِ والوالد..

قالتِ الأمُّ بابتسامةٍ ذكيّة:

- تعجبنا نحن فقط!! طيّب، وأنت؟!!

قال بصعوبة بالغة:

- أراها جيّدة، نعم، لا بأس بها.

ضحكتِ الأمُّ من كلّ قلبها وهي تربت على كتفه وتقول:

- أيّها الماكر، حتى وإن أخفيت مشاعرك عن العالم أجمع، فلن تستطيع إخفاءها عن أمِّك.

(30)

في حديقةٍ عامّة، وعلى عشبٍ أخضر نديّ افترش الحاجّ إبراهيم قطعةَ قماشٍ صغيرةٍ جلس عليها هو وزوجته الحاجّة أمّ يوسف بينما كانت عيناه تُتابعانِ طفلينِ صغيرينِ يلعبانِ على مقربةٍ منهما فجأةً، سقط الصغير وآذى ساقه، فصارتِ البنت تحاول رفعه عنِ الأرض لكن دون جدوى!

مشى الحاجّ إبراهيم بسرعةٍ نحوهما وقد رفَّ قلبه عليهما، وما أن وصل حتى سمع الصغيرة تُردّد: قم يا يوسف، أنت شجاع ولا يليق بك أن تنام على الأرض هكذا!!

أثارت هذه الكلمات الطفولية شجون الحاجّ إبراهيم خاصّةً بعد أن سمع اسم ولده الشهيد (يوسف) يتردّد على لسان تلك الصغيرة!

انحنى على الصبي وحمله بين ذراعيه وهو يخاطبه بحنان:

- يوسف، إذن هذا هو اسمك، هل ستكون يوسف الملائكيّ عندما تكبر؟!

نظرتِ الصغيرة إلى الحاجّ باستغرابٍ وهي تتساءل:

- وهل تعرف عمّي يوسف أنت أيضًا؟!

سقطت دمعةٌ من عين الحاجّ إبراهيم، وقبل أن يجيبها، أكملت:

- نعم، سيكون يوسفنا الصغير في يومٍ من الأيّام مثل عمّنا يوسف الملائكيّ شهيدًا يمشي على الأرض إن شاء الله تعالى.. هكذا قالت خالتي لجين وهكذا يقول عمّي سند دائمًا.

اتّسعت حدقتا عينيّ الحاجّ إبراهيم، وحانت منه التفاتة سريعة نحو تلك الصغيرة وهو يسألها:

- لجين، سند؟! مَن تكونين يا طفلتي الجميلة؟!

- أنَا فضة جلال، لجين هي خالتي وهذا الصغير هو يوسف ابن خالتي..

قاطعها وهو ينحني ليضمّها إلى صدره قائلًا:

- جلال!! أنتِ إذن ابنته! فضة الصغيرة، لقد كبرتِ، ما شاء الله!!

- وهل تعرف أبي يا عمّ؟!

- وكيف لا أعرفه وهو صديق ولدي يوسف الملائكيّ..

- إذن أنت تعرف أبي وتعرف عمّي يوسف الشهيد البطل!

ركضت فضة صوب أهلها وهي تكاد تطير من الفرح وتردّد:

- لقد وجدت والد العمّ يوسف، إنّه هنا، إنّه هنا!

انتبهت شعاع الزهراء وكذلك لجين إلى صياح فضة وقد كانتا تهيّئان مائدة الطعام بينما كان زوجاهما يتمشّيان في تلك الحديقة..

قالت لجين بقلق:

- لقد غفلنا عن الصغيرين!!

اجابتها شعاع:

- ولكن، من هذا الذي يحمل ولدكِ يوسف؟! أظنّ بأنّي أعرفه!

صاحت لجين بلهفة:

- إنّه الحاجّ إبراهيم يا شعاع!

قامت شعاع مُسرعةً نحوه وهي ترحّب به، أخذت منه الصغير وقد لاحظت بأنّه قد كبُر كثيرًا خلال هذه السنوات القليلة الماضية، وقد بانت تجاعيد السنين عليه كثيرًا..

كان يلهث من شدّة التعب، اعتذرت منه ودَعَته لمُجالستهم.

قامت لجين من مكانها وهي تحيّيه باحترام، حيّاها وهو يضع يده على صدره ويقول بعيونٍ دامعة:

- آهٍ يا ابنتي، هل أسميتِ ابنكِ على اسم ولدي يوسف؟!

طأطأت لجين رأسها وهي تجيب خجِلةً:

- هذا كان اختيار زوجي يا عمّ، فلقد كان ليوسف الفضل من بعد الله تعالى في تغيير سند نحو الأفضل.

قال وهو يمسح دموعه التي تأبى التوقّف:

- لقد ظلمتكِ يا ابنتي وظلمت ولدي كثيرًا.

- لا تقل هذا يا عمّ، أرجوك.

- آهٍ يا ابنتي، حتى عندما خطبتِ له الغالية شعاع الزهراء لم يتمّ الزواج واختار الله له طريق الشهادة قبل أن يتزوّج، هل تعلمين لماذا؟

صارت لجين تواسي دموعه بدموعها وهي تتساءل:

- لماذا يا عمّاه؟!

- حتى يحترق قلبي يا ابنتي!

كانت شعاع تستمع وتبكي هي الأخرى، أكمل الحاجّ إبراهيم حشرجة صدره بالقول:

- نعم، كانت تلك عقوبة من الله لي، وأنا أستحقّها، صدّقيني!

قالت لجين مُحاولةً تطبيب جرح قلبه:

- اسمعني يا عمّ، لم يكن لقائي بيوسف صدفة رغم أنّنا لم نكن لبعضنا منذ البداية، ولم تكن خطبته لشعاع صدفة أيضًا، وكنت أستطيع أن أخطبها لجلال منذ البداية لكنّ يد الغيب تدخّلت وجعلتني أفكّر بيوسف زوجًا لها!

لقد يسَّر الله الأمور في حينها حتى تشتدّ أواصر العلاقة بين يوسف وسند فيهتدي سند إلى الطريق القويم.

فولدك يا عمّ كان سببًا في هدايتي وخاصّةً بعد أن صار يرافقني لحضور دروس أستاذه الشيخ رضا، كذلك كان يوسف سببًا في هداية زوجي وتعريفه بمفاهيم كثيرة كانت خافيةً عنه، إذ إنّ سندًا يا عمّ كان مسلوب الراحة، مشوّش التفكير، ذا خلق سيءٍ مع أخته حتى التقى بيوسف فتغيّر كلّ شيء!

قالت شعاع وهي تسند كلام لجين:

- لا تعلم يا حاجّ كيف تغيّر أخي سند بعد تعرّفه على يوسف!

هنا، جاء جلال وسند وتفاجأ الاثنانِ عند رؤيتهما للحاجّ إبراهيم، فرحّبا به أشدّ الترحيب، ثمّ اتّجه سند راكضًا نحو الحاجّة أمّ يوسف التي كانت تجلس بعيدًا وحدها، فدعاها للانضمام إلى جلستهم تلك حيث مائدة الطعام التي أعدّوها وأهدوا ثوابها إلى أرواح موتاهم، ومن ضمنهم الشهيد يوسف.

بعد الانتهاء من تناول الطعام وقراءة سورة الفاتحة صارت كلٌّ من شعاع ولجين تصبّانِ الشاي في الأكواب بينما كان سند يتحدّث عن تأثير الشهيد يوسف في حياتهم جميعًا:

- لقد علَّمنا الشهيد يوسف أن نذوب في حبّ الله وأن نفني حياتنا إكرامًا لذلك الحبّ، فحالة (الفناء) التي يعيشها المؤمن هي المرحلة الأخيرة من مراحل الوصول إلى الله تعالى..

كان يقول لي:

- عندما ترى أنّه لم يعد هناك وجود لنفسك في محضر الله حيث لا وجود للـ(أنا) وعشتَ التسليم المطلق لأمر الله تعالى، فاعرف حينها أنّك على وشك الوصول!

أمّا إن عشت تفاصيل هذه الحقيقة مع الله (إلهي كنتُ أنا، والآن كُلّي أنت) فاعلم بأنّك قد وصلت!

نظرت لجين إلى السماء حينها وهي تردّد تلك العبارة من صميم قلبها ودموعها تحكي صدق مشاعرها تجاه الخالق جلَّ وعلا..

انتبه إليها الحاجّ إبراهيم فسألها:

- ما بكِ يا ابنتي، هل تذكّرتِ شيئًا من الماضي؟!

مسحت تلك الدّموع وهي تخاطبه:

- آهٍ يا عمّ! لو تدري كيف كنتُ أنا؟!

حينها تكلّم جلال:

- لقد كانت زوجتي فضة رحمها الله أكثر إنسانة عانتِ الأمرَّين؛ بسبب قلقها على عاقبة أختها لجين، وما أشدّ أذاها من سوء العلاقة بينهما!

وأنَا الآن أتمنّى لو كانت فضة موجودة؛ لترى كيف أصبحتِ اليوم تلك الأخت المؤذية!!

ابتسم وهو ينظر صوب لجين التي كانت مطأطِئة الرأس خجلةً قد غسلت وجهها بدموع الندم والحسرة وهي تردّد مع نفسها:

(إلهي كنتُ أنَا، أمّا اليوم فَكُلّي أنت)

***

بعد ساعة كان الجميع قد أقبلوا بوجوههم نحو قبر سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليهما السّلام، ومن تلك الحديقة وعلى ذلك العشب افترشوا سجّاداتهم وأمسكوا بكتب الأدعية والزيارات التي أحضروها معهم وصاروا يردّدون معًا كلمات زيارة عاشوراء، فاللّيلة هي ليلة الجمعة (ليلة الشهداء) حيث كانت أرواح شهداء العقيدة والوطن تحوم باحثةً عمّن يذكر سيّدهم الحسين عليه السّلام ليجالسوه ويقرأوا معه كلمات تلك الزيارة المقدّسة..

وفعلاً، لقد حضر الشهيدانِ (يوسف وعبّاس) تلك الجلسة الحُسينيّة وقد شعر الجميع حينها بذلك العطر الزكيّ الذي ملأ المكان منذ بداية قراءتهم لكلمات الزيارة!

أمّا روح فضة وكذلك روح كلٍّ من والديها، فكانت تنظر من أعالي الجنان إلى تلك الجلسة النورانيّة بسرورٍ وغبطة، فلا يُفرح قلب المؤمن الراحل أكثر من رؤيته لأهله من بعده يعيشون السكينة والهدوء النفسيّ في ظلّ تقوى الله عزّ وجلّ.

أكمل الجميع قراءة زيارة عاشوراء، فرفرف الشهيدانِ فوقهم بجناحيهما عائدَين إلى نعيمهما الأبديّ «فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

تمت بحمده تعالى



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على محمد وآل محمد

اللهم كن لوليك الحجة بن
الحسن صلواتك عليه وعلى آبائه
في هذه الساعة وفي كل ساعة
وليا وحافظا وقائدا وناصرا ودليلا
وعينا حتى تسكنه أرضك طوعا
وتمتعه فيها طويلا وهب لنا
رأفته ورحمته ودعاءه وخيره
برحمتك يا أرحم الراحمين

اللهم عجل لوليك الفرج